

حمود الشّلّ

ثورة الياسمين

شخصيات من الثورة الشاميّة

تقديم: وسيم المغربل

ثورة الياسمين

شخصيات من الثورة الشاميّة

حسن محمود الشّلّ

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

ردمك ٩٧٨-٦١٤-٠٢-١١٦٤-٣

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هاتف بيروت: ٩٦١٣٢٢٣٢٢٧+
editions.difaf@gmail.com

الرّسوم بريشة الفنّان ربيع الططري

طبع في لبنان

الإهداء

رجاءَ عفوِك، وفضلِ كرمِك، إلٰهي، ومولاي

أملاً باللقاء بك سيّدي، رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم

إلى والدتي، رحمها الله تعالى

إلى والدي الطّيّب، حفظه الله، رجاء دعائه

إلى أخي المحبّ محمّد «أبو عمر»، وعائلته

إلى أختي الصّابرة: أمّ إبراهيم، وعائلتها

إلى أختي اللّطيفة: منى

إلى زوجتي الصّابرة: أمّ عبد الرّحمن

إلى ولديّ: عبد الرّحمٰن، وشافعيّ

إلى مشايخي، وأساتذتي

إلى أقربائي، وأحبّائي، وجيراني

إلى طلّابي، وطالباتي

إلى كلّ من ساعدني لكي يولد هذا الكتاب

إلى كلّ من سيقرأ هذا السّفر من الألم

* * *

أهدي هذا الحبّ بكلّ الحبّ

٢٩ صَفَر ـ ١٤٣٥هـ

٢ ـ ١ ـ ٢٠١٤م

لفت نظر

- كلّ الشّخصيّات هي من محض الحقيقة والواقع، وليس لها أيّة علاقة بالخيال.
- كلّ الآراء الواردة في هذه المجموعة هي للشّخصيّات، وليس لأحد آخر.
- لا يحقّ لأحد أن يقتبس أيّ وجع لأيّة شخصيّة دون إذن خطّي مسبق منها.
- لا أحد يعرف من الذي كتب هذه المجموعة: أنا، أم الشّخصيّات.
- هناك صور للشّخصيّات، ولكنّها ليست بقوّة الصّور التي ستراها في حناياك.
- شخصيّات من الثّورة الشّاميّة: هزيمة بطعم الانتصار، ونصر بنكهة الهزيمة.
- شخصيّات من الثّورة الشّاميّة: ثورة وحّدت العالم، وقسّمت العالم... بشكلٍ جديد.
- لأوّل مرّة أشعر بوجع كلّ الشّخصيّات التي كتبتني على أوراق الألم.
- كلمة سوريا لن تكتب بعد اليوم بالتّاء المربوطة، لن تكتب إلّا بالألف الطّويلة.



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم: وسيم مغربل

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله، أما بعد:

فمَا من أمةٍ أرادت النهوضَ إلاّ وصاغت من معاناتها مع الطغيان قصصاً كتبتها بالدَّم والتضحيات، وكان في طليعتها أبطالٌ لم يرتضوا الاستكانة والرضوخ لشروط الظلم والفساد.

واليومَ تشهدُ أمَّتنا صراعاً ضخماً بين تيار يريد إعادتها إلى حظيرةِ الخضوعِ المُذلِّ وسطوة القوى الاستعمارية واستمرار مسيرةَ الفساد والطغيان، وتيارٍ آخر يريدُ كسرَ القيود واستلهامَ قيمِ الحقِّ والخير والحريّة لبناءِ واقعِ أفضل، يستعيد فيه الإنسانُ كرامتَه وتنهضُ فيه الأمَّةُ من كبوتها، وتضعُ حدّاً لتسلُّط العدوِّ على مقدّرات وإمكانيّات الأمّة.

ورغم توسُّع رُقعة الثورات في العالم العربي، إلا أنه تبقى الثورة السُّورية أمَّ الثورات وأكثرها إصراراً وصَلابةً، فتراها عَصِيَّةً على الإنهاء رغم توافق وتحالف الجميع من قوىً إقليمية ودولية ضِدها، ورغم الكمّ الهائل من حركات الخداع العالمي والنفاق الدولي - ممن يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وأفعالهم - فإن هذه الثورة مع تضحياتها ومآسيها تبقى ملحمة حقيقية للفداء والتضحية والثبات.

وما كتاب " ثورة الياسمين " الذي دبَّجَه يراعُ الأخِ الشيخ حَسن الشلّ إلاّ مساهمة أولية لتبيان حالِ تلك النفوس الأبيَّة التي أعطت وضحَّت بالكثير لتنعَم أمَّتنا بغدٍ يندحرُ فيه الطغيانُ ويستعلي فيه الحق.

إنَّ رصدَ وتدوينَ قصصِ التضحيةِ والجهاد هو رأسمالٍ عزيز لأيّ أمةٍ تحترم ذاكرتها التاريخية وتقدّر عطاءاتها للأجيال اللاّحقة، حيث خزانُ أمّتنا لا ينضب بأهل المروءة والشهامة والكرامة، منهم تَتعلَّم أجيالُنا معانيَ وقِيَماً طالما حاول الطغيانان الداخلي والخارجي طَمسَها وتطويع الأمّة لما يريدون...

الصراعُ قائمٌ، والمعركةُ مستمرةٌ..إنها معركةُ الإنسانِ في الأرض..إنها بلاءُ الإنسانِ في الأرض، ﴿قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥]

مقدّمة أولى

صلاة الثّورة الشّاميّة

ـ الله أكبر. صارت حناجرهم مآذن.

ـ الله أكبر. صارت أجسادهم ترانيم ملائكة في محراب الشّهادة.

ـ أشهد أن لا إلٰه إلّا الله، وأشهد أنّكم رجال رجال؛ رجال لا كالرّجال، من زمان آخر، ومن مكان مختلف.

ـ أشهد أنّ محمّداً رسول الله، وأشهد أنّ صغاركم عمالقة، وأشهد أنّ نساءكم سحبٌ شمّاء، وأنّ شيوخكم جبال عزّة، وأوتاد كرامة.

ـ حيّ على الصّلاة. صارت حيّ على الصّلات مع الله، جلّ جلاله، في علاه.

ـ حيّ على الفلاح. سمعها الكون: حيّ على الجهاد «باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه».

ـ قد قامت الصّلاة، وتزيّنت الجنّة بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ـ قد قامت الصّلاة. خلقها بفيض جود يده، وزرعها

بلحظ سخاء محبّته، وتعهّدها بعين دقائق لطفه، حتّى غدت عروساً تزخرفت بعطر الشّغف من أجل استقبال الشّهداء.

ـ الله أكبر، الله أكبر، وزُرعت شجرة، جذورها الأشلاء، ونُسغها الدّماء، فروعها الإباء، وزهورها الحرّيّة، وثمارها الكرامة.

الله أكبر، الله أكبر من كلّ كبير، وكلّ صغير، وكلّ حقير.

ـ لا إلٰه إلّا الله. ثورة تنطلق من خشوع محراب الصّلاة، لتضجّ بها كلّ فراغات الذّلّ، وتمتلئ بصراخات الحرّيّة من الحناجر الصّخريّة الألوان.

ـ من تونس الخضراء، كانت النّار العزيزيّة، فالتهب الميدان بكرامة المصلّين عند الفجر... شهور زرع الأبطال في الميدان حكايات تملأ أساطير التّاريخ، واشتدت حرارة الصّيف، فسقطت الثّمرة الفاسدة عند صلاة الظّهيرة التي أقيمت في طرابلس، فصلّى الشّهيد إماماً بالمجاهدين، وإذا بالشّيطان يسقط بعد عام. يسقط في كلمته، وصار أمثولة لمن لا يعتبر.

ـ ومن الأشجار التي قُصّت فروعها في درعا، سقطت بذور الدّفلى في باحة المسجد الأمويّ الكبير حيث كان يصلّي الخليفة معاوية، فهبّ إلى البذور العطشى، وسقاها؛ فأنبتت: «الله أكبر» داعيةً إلى صلاة الكرامة، بعد أن توضأت بماء الياسمين الأبيض النابع من قصيدة لنزار كان أراد أن ينجبها.

ـ نادت النّبتة: «الله أكبر»، فاستجابت اللّاذقيّة، فقامت، وتوضأت بمياه البحر، وتيمّم الشطّ الأصفر، ليشارك بالصّلاة، ونشّفت ماءها بالغمام الذي توقّف عن السّفر. قام السّاحل للصّلاة؛ فصلّت دمشق بصلاته، ولكنّ حمص أبت إلّا أن تكون الإمام؛ فخالد بن الوليد انتصر على جدران سجنه، وانطلق فوق صهوة سيفه «الأشقر» يطلب الشّهادة من جديد، وينالها الآن بعد طول انتظار. يسقط شهيداً في بسمة عشرات الشّهداء، في بابا عمرو بن العاص، رضي الله عن صحابة رسول الله، عليه الصّلاة، والسّلام.

ـ وكانت رسالة: من بابا عمرو إلى باب السّباع؛ رسالة لُحمتها الدّماء. نقاطها الأشلاء، مدادها المسك الأحمر، وفحواها أنّ السّباع ستمزّق بقايا الحيوان المنتن الذي لا زال يزأر؛ لأنّه مجروح في أعمق أخلاقه النّازفة، ولكنّه لا يستطيع أن يموت...

١٢ ـ ١٢ ـ ٢٠١١م



مقدّمة ثانية

لربّما تأخّرت بالكتابة، ولذلك أسباب، ونواه، ولعلّ من أعظم هذه الأسباب أنّني أشعر - حقيقة - بقصور لغتي عمّا تنزع إليه نفسي في تصويره، أو ربّما على العكس من ذلك، أخشى أن تثور اللّغة، فتخرج عن حدود المعقول إلى اللّامحدود في المسافة الفاصلة بين اللّغة، وبين ما في النفس من صرخات مجروحة بالإجرام القرمزيّ.

ولأجل ما أسلفت، ها أنا أعيد الصّياغة:

اشتعلت الثّورة الشّاميّة؛ ثورةالياسمين، فصرخ جنين الحرّيّة من أعماق مشيمة الظّلم. أيقظته أنوار الفجر الأولى، فخرج مارداً جبّاراً، ومزّق بيديه غشاوة، كانت تبدو كسدّ صخريّ عظيم بسبب كثافة الظّلام.

وانهار جبل جليد الوهم تحت وطأة شعاع شمس طال برود ليلها. شمس تململت، وكسرت قشرتها، واشرأبّت إلى أبراج سديم الحرّيّة الأخضر.

وانتفض المقاتلون العائدون من «القادسيّة»، وانضمّ إليهم

أبطال «نهاوند»، فأضرمت نيران «كالديران»، وتجمّعوا هناك في أرض الشّام.

وهناك على التّلّة المشرفة وقف معاوية على رأس الجيش. هذه المرّة كان عليٌّ معه في قيادة واحدة، وكان خالد هو القائد الميدانيّ، وكان كسرى يسلّم سراقة بن مالك سواريه الذّهبيّين الأسطوريّين. وهناك كان يستلم الحسين بن عليّ، وعبد الله بن عمر ابنتي كسرى غنيمة حرب من الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ.

وملأ صراخ الملح آفاق الجروح، والقروح، وانطلقت قوافل صراخ الوجع من تحت الأظفار الدّامية المقتلعة؛ فثارت أعاصير الأحرار، وماجت أمواج الحرائر،، وصدحت الحناجر: «حرّيّة، حرّيّة، حرّيّة» وقضّ الصّوت أركان مضاجع الفرعون، فأرسل هامان، وقارون، وتيمور، ورستَم، وشاور لإسكات الأصوات بالرّاجمات، والصّواريخ، والميغ، وبعث بذار الموت معها، وجاءالتّتار من بلاد الجليد، وأتى المغول من بلاد النّار، وجاء الأنياب من أرض التّنين، ومن علب الكبريت، وصناديق الخشب، وجاء المقاتلون من كلّ حدب ينسلون، والمقاتل إمّا قاتل، أو مقتول، وتلوّن العالم كلّه برداء الدّفاع عن حقوق الإنسان، ووقفت الولايات المتّحدة ضدّ الوحش القاتل، وقفت ضدّه بالتّصريحات العنقوديّة،

وبالأكاذيب الفسفوريّة، وبالعقوبات البهلوانيّة، وأبقت سفيرها في دمشق «لمراقبة الأوضاع!»، وعنّفت تركيا القاتل المجرم بكلّ الجمل الفعليّة الشّاجبة، علماً أنّ تركيا قصفت أرضها، وقتل شعبها، وانتهكت كرامتها، وأسقطت طائرتها، ولا تزال تحتفظ بحقّ الرّدّ في الوقت المناسب!!، وكذلك فرنسا، وبريطانيا استنفدت كلّ مفردات معاجمها في استنباط كلمات الإدانة للقاتل السّفّاح، فانتصف المقتول، والحمد لله ربّ العالمين، وأمّا الجامعة العربيّة، فقد تحوّلت إلى مدرسة ابتدائيّة خاصّة، يملكها «مرابي»، وتعلّم فيها كلّ الموسات!.

وهكذا كلّ العالم سكت، و«المدرسة الابتدائيّة العربيّة» لم تعترف بالمعارضة، ولم تقتل القاتل، ولو حتّى بالكلمات الخشبيّة، وقد اعترفت بعد حين، لكي تستمرّ المسرحيّة التي هي بلا نهاية حتّى الآن، وسكت العالم. تواطأ العالم. الحمد لله!!؛ أخيراً اتّحد العالم على ذبح الشّعب السّوريّ!.

وقتل النّاس، مزّقت الأجساد، تشلّت الأشلاء، قطّعت الرّؤوس بالفؤوس، انتهكت الأعراض، واختلطت الأشلاء بدماء الخبز الجائع، وتشرّد النّاس، وديست كرامات النّاس، وتسوّل النّاس إحساس النّاس، سكنوا خياماً فرشها الماء، ولحفها غمام السّماء، وراحوا ينتظرون علب المساعدات، ويأخذونها من يد قاتلهم وممزّقهم، ثمّ يقبّلونها. ودمعت عيون

عندما أعطيت فضول الأموال، وبكت أفواه، وهي تمضغ ثمن لحوم أبنائها الممزّقة أمام أبواب الأفران!.

وعريت أقدام، وبيعت أعراض، ومُدّت أيدٍ، وتحوّل التّاجر إلى ماسح أحذية، وتكالب العالم حول عظْمة حماية الأقليّات، وكأنّ عقدة اليهود ـ دائماً ـ في باطن نفسيّة العالم.

وماتت حقوق الإنسان، وعاشت حقوق الحيوانات. اجتمع العالم، ووقف العالم في صفّ حقوق الحيوانات.

ولكن، عند اشتداد اللّيل، انتفض الفجر، وجاءت الكلمات على خيل الصّفحات البلق «والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة، ويا خيل الكلمات، اركبي».

تأخّرتُ بالكتابة عنهم، وكيف أفعل؟ كيف أكتب عنهم؟ وأنا أتدثّر بمدفأتي، وأتمتع بحماية جدران بيتي، وأتلذّذ بأكل برتقالتي، وأستلقي بنعاس هرٍّ قرب مائدتي، وأنا آمن، أو شبه آمن في واسع حجرتي!؟.

كيف، وهم جائعون؟ كيف، وهم يرتجفون؟ كيف، وهم لا جُذُر حولهم؟ كيف، وهم يستجدون عطف النّاس؟ كيف، وهم يغوصون في وحول بلاد الغربة؟! كيف، وهم تتقاذفهم الجمعيّات؟! كيف، وهم تتاجر بهم بلدان ضيافتهم؟! كيف سأكتب عنهم؟ أم هل أقول: كيف هم سيكتبونني؟!.

سامحوني إذا تأخّرت بالكتابة عنكم!بل سامحوني إذا

كتبت عنكم. سامحوني إذا قصّرت، وسيكون ذلك؛ فأنا قدّمت حبري، وأنتم قدّمتم دماءكم. أنا قدّمت وقتي، وأنتم قدّمتم أعماركم. أنا قدّمت كلماتي، وأنتم قدّمتم ملاحم مجدكم. أنا قدّمت بياني وبديعي، وانتم أبدعتم فنوناً من الكتابة لم تعرفها فنون البشر قبلكم، ولن تعرفها بعدكم.

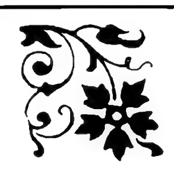
إلى المجاهدين، إلى المشرّدين، إلى الجائعين، إلى الخائفين، إلى الشّهداء البررة، إلى الصّابرين، إلى المحتسبين، إلى النّازحين، إلى الهاربين من موت إلى آخر، إلى أمّ قدّمت ولدها شهيداً، ولم تستطع الاحتفال برؤيته، إلى والد ودّعه ولده ليذهب إلى «غُوْطَة الحرّيّة»، إلى رجل ترك زوجته، وعاد إلى دعس الظّلام، إلى رجل يحكي حكاية أخيه الشّهيد إلى النّاس بكلّ فخر، إلى رجل غنّى وطنه، فاقُتلعت حنجرته، ولا زالت تغنّي وجع الوطن، إلى أطفال درعا، إلى أبطال حمص، إلى رجال حماه، إلى شباب حلب، إلى زهرات الحرّيّة، إلى أساطير القُصير، إلى بنادق الزّبداني، إلى أهالي الشّام الرّائعين، إلى شباب اليرموك، إلى هادمي صنم الرقّة، إلى عشائر الحرّيّة، إلى كلّ الأحرار، والحرائر، إلى الجيش الحرّ، إلى المجاهدين، إلى كلّ عمر، إلى كلّ عليّ، إلى كلّ خالد، إلى كلّ خنساء، إلى كلّ حسين، إلى كلّ أبي عبيدة، إلى كلّ مثنّى، إلى كلّ حمزة،

وكلّ فاطمة، وكلّ قعقاع، وكلّ غافقيّ، إلى كلّ الشّام، إلى كلّ الشّام.

إلى من وقف مع أهل الشّام، وثورة الياسمين؛ في لبنان، والأردنّ، والعراق، ومصر، وتركيا، وفي الشّرق، والغرب، وفي كلّ العالم الحرّ الشّريف. أقدّم هذا العمل المتواضع مشاركة منّي معكم.

بعلبك ـ آخر صفر:
١٤٣٤هـ
٩ ـ ١ ـ ٢٠١٣م

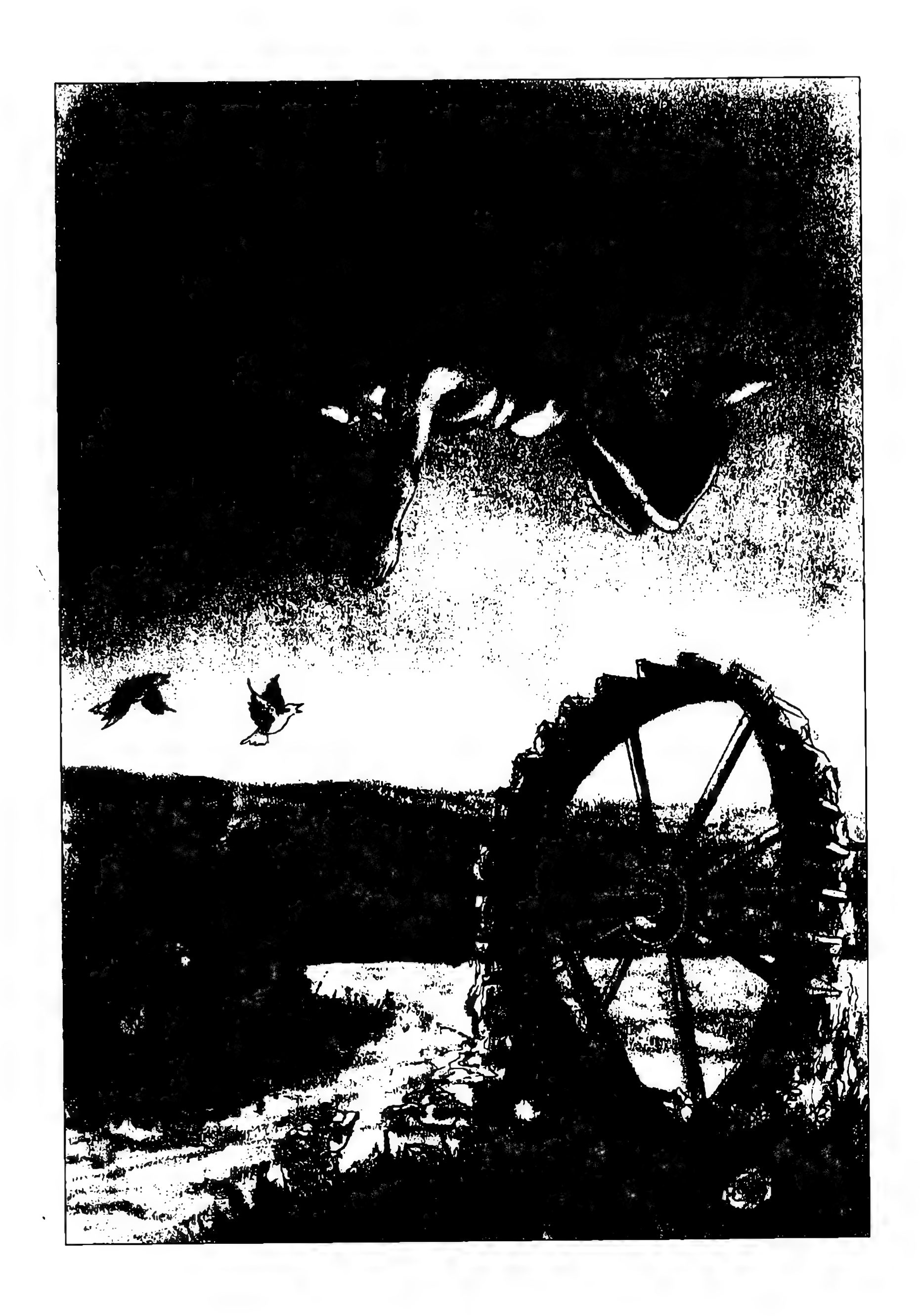


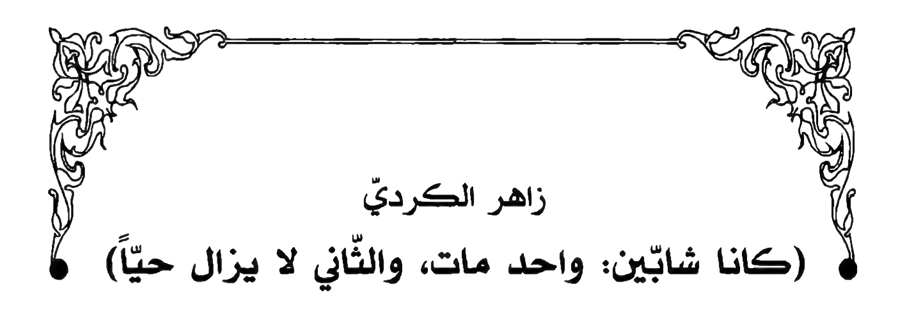


زاهر الكرديّ

(كانا شابّين: واحد مات، والثّاني لا يزال حيّاً)







زاهر الكرديّ

(كانا شابّين: واحد مات، والثّاني لا يزال حيّاً)

قال: «كان دائماً ما يسألني: متى سنستشهد يا أبو بكر؟».

أبو بكر هو لقبي أنا زاهر الحمويّ. هكذا كان يسألني صديقي زاهر الكرديّ؛ زميلي الألمعي في معهد التّكنولوجيا بحماه.

أذكره الآن عندما كنّا نتسلّق النّاعورة الحمويّة العتيقة، لنلقي بأجسادنا الصّغيرة الطّريّة في ريش نعام مياه العاصي الفضيّة، فنغوص في أحلام النّهر المتمرّد، ولكنّنا لم نتخيّل يوماً أنّ مياه العاصي ستتحوّل أنهار دماء، وستصبح أسماكه هي الأطراف المقطعة، والأشلاء!.

كانت حماه، ولا تزال في كابوسها منذ الثّمانينات؛ لم تستيقظ من رعبها، ولم تزل الحاجّة أمّ أحمد؛ العجوز المشلولة تنتظر أولادها الثّلاثة، وأباهم لكي يعودوا إلى قبورهم. لم يبق من أولادها إلّا «فؤاد» الذي أنجب ولدين، أنا أحدهما.

كانت حماه لا تزال تغوص في نزيفها، حتّى أفاقت على صوت مدوٍّ لأظفار درعاويّة تهدم أصنام اليأس، والجبروت؛ فتتهاوى النُّصب الفارغة من أمام بوّابات المدن.

زاهر الكرديّ، كان مميزاً في المعهد. كان عاشقاً للتّصوير. كان يصوّر كلّ شيء له أهميّة؛ فراشةً في حقل أصفر، طفلاً يسبح في نهر العصيان على المنحدرات، وعلى المألوف. كان يصوّر عجوزاً متغضّن الأديم الأسمر، وعندما ينطلق ضوء الكاميرا كان يشع من عيني العجوز بريق غريب.

وجاء الصّوت من درعا، فهاجت نفسه إلى التّصوير، واشتعل لكي يصوّر أصوات الأظفار الدّرعاويّة، ولكنّه لن يذهب إلى درعا، بل ستأتي درعا إلى ساحة العاصي. سيصوّر الصّرخات؛ صرخات الولادة إذ ينشقّ رحم الظّلم، إذ تتمزّق مشيمة الظّلام. سأصوّر الصّوت، وألوّن الفراغ، وأحلّي التّحميض، وسأنجب صوراً، وأرسلها إلى الوجود تلعب في ساحات المدى، وتقفز في ملاعب الحرّيّة.

واشتعلت حماه. اشتعلت ساحة العاصي بالتّكبير، بالتّهليل، بالكبار، بالصّغار، بالشّيوخ، بالنّساء، بالرّجال، بالشّباب، بكلّ الأحرار والحرائر، بالنّواعير، بالسّوق الطّويل، بالحاضر والضّواحي. خرج كلّ من بقي فيه روح بعد مجزرة حماه.

«سلميّة سلميّة»، هتفت أنا، وزاهر، «لا تخرج، ياولدي»، «سلميّة سلميّة»، «سأضربك، زاهر، ادخل إلى البيت»، «الله، سوريا، حرّيّة، وبس»، «أطعني، ياولدي»، «الله، سوريا، حرّيّة، وبس»، «إلّا في هذه، يا أبي»، «صوّر، يا كرديّ، صوّر».

وصوّر زاهر الكرديّ صور الثّورة الحمويّه، وأرسل لوحاته إلى «الجزيرة»؛ فشاهد العالم بعين زاهر الكردي؛ شاهد العالم صوراً حيّة؛ صوراً تشيب الولدان، صوراً كان النّظام يسعى لخنقها مثل كلّ الموءودات، ولكنّ «زاهر بن الخطّاب» أحياها، فانتفضت صوره على قناة الجزيرة. شاهد العالم يوم هجم الخوف؛ جنود الأمن، على المعتصمين. يومها حاصر الجيش آلاف المتظاهرين، يومها ارتعب الجيش من العدد المهول للمعتصمين في ساحة العاصي؛ فوجهّت فوّهات البنادق إلى عيون المتظاهرين، وأطلق الرّصاص، فارتفع شابّ إلى مقام أرض الوطن، ارتفع إلى مقام ريّ ثرى الوطن بدماء تغلّي بالحرّيّة؛ بدماء صرخت لأوّل مرّة، ولأوّل مرّة تسمع صراخَها. سقط إلى الأعلى، وارتقى شهيداً، وأراد المتظاهرون أن يسحبوه من على قارعة الطّريق، أرادوا قتله مرّتين: الأولى بالرّصاص؛ لأنّه قال: أنا حيّ، ويحقّ لي بأن أصرخ، والثّانية عندما يشوّه جسده، فيصير مثل أرواح الجنود القتلة. في ثورتنا

يقتل الشّهيد مرّتين، وهذه من خصوصيّات ثورتنا الشّاميّة المباركة. ثورتنا حققت معجزة عودة الشّهيد إلى الدّنيا، ليستشهد مرّتين!.

زاهر يصوّر. زاهر هو عين العالم الأصمّ. لم يجرؤ أحد على إنقاذ الجسد الحيّ. زاهر يصوّر، وعندما توقّف الزمن، نزلت امرأة حمويّة، بسِمةٍ حمويّة، بعباءة حمويّة، برجولة حمويّة، وألقت بجسدها أمام البنادق تحمي الجسد المسجّى خلفها، وراحت تصرخ بالنّاس: «شيلو الشّهيد، شيلو الشّهيد». تصاعدت المرأة الحمويّة سدّاً عالياً منيعاً أمام البنادق الخائفة من الجسد النّائم على فراش كرامة الوطن، وسُحب الشّهيد، وانتصرت المرأة، وصوّر زاهر، وبثّت الجزيرة.

وفي يوم، اتّفقت أنا ورفاقي في الحيّ، ونفّذنا، وقف كلّ منّا عند زاوية، وراح يصرخ: «الله أكبر، الله أكبر» وسمع الشّباب، والصّبايا، وسمع كلّ الأحرار والحرائر، فبدأوا يتوافدون، وسمع والدي؛ فنزل مهرولاً بثياب البيت: «عد إلى البيت»، «لا»، «أطعني، يا ولدي»، «إلّا في سبيل حريّة سوريا»، «عد إلى البيت»، «لا»، فلطمني على وجهي، ما أحلاها من يدك، يا أبو طاهر!. لطمني على وجهي، فلمع الضّوء في عيني، فرأيت زاهر الكردي، فركضت إلى المظاهرة، وقال أحد الجيران: «دعه، وسيعود سالماً، إن شاء الله».

واتّفقت حماه في أصيل يوم من أوائل أيّام صيف ٢٠١١م، فخرج الحمويّون إلى السّباحة في مياه الحرّيّة التي لم يعرفوها منذ زمن بعيد، وكالعادة هتفت الأصوات، والتهبت الحناجر، واستدعيت الرّشاشات، وهجم «المورلوك» لاصطياد «الإيلوي»، ولكنّ عدسة الكاميرا كانت لهم بالمرصاد هذه المرّة، وصوّر زاهر فوّهات الرّشاشات، وهي تلفظ إجرامها نحو صدور الحريّة التي تمثّلت بشكل أشخاص خرجوا من الشّرانق إلى ربيع جديد. صوّر الكردي تفاصيل وجوه الرّشاشات الرّوسيّة. صوّر قهقهات الطّلقات. صوّر قسمات العهر على أسارير رائحة البارود والنّار، وكانت مجزرة.

«أذكر يومها، وصل الخبر إلى المسؤولين، وكانت تصريحات أنّ الذي قام بهذه المجزرة هم المجموعات المسلحة السّلفية الإرهابيّة الفارّة من التّاريخ، وبما أنّ المسؤولين قالوا ذلك؛ إذاً فالحقيقة كما قالوا؛ المسلحون السّلفيّون المندسّون هم الذين ارتكبوا المجزرة، والجيش لا علاقة له، وصدّق الجميع؛ صدّق الجميع، ولكن، فجأة ظهر الفلم على الجزيرة! الفلم الذي صوّره الكرديّ، فسكت الليل، وانطلق الفجر يسبّح بحمد الحقيقة، وخرس المسؤولون، وأكلوا الهواء، وانتفخت مثانتهم بالغضب: «صفّوه»: «اقتلوا ابن الكلب»:

«هذا الحيوان»: «صفّـــوه»، وألصقت على مؤخرة رئيس فرع الأمن السّياسي لافتة مكتوب عليها: «قاتل».

ووضعت كاميرات مراقبة في المعهد، وكان الكردي يأتي إلى المعهد لماماً، ويمضي خلسة، وأُصْدر الأمر باعتقاله.

صارت مشاهدتي لزاهر قليلة، وعندما رأيته بعد فترة كان الهزال بادياً على جسمه، ومع ذلك فقد زادت صحّة التّصميم في عزم وجهه، ولكن أليس غريباً أن تخونه صديقة عمره!؟ لقد خانته الكاميرا التي أحبّها، وأخلص لها؛ فقد وضعته بين خطّي طول وعرض محدّدين، فقُبض على زاهر الكردي في المعهد، فغرق في مستنقع من مستنقعات «الجوّيّة»؛ هكذا نسمّي فرع المخابرات الأشدّ قسوةً في سوريا، واختفى زاهر، واختفى والده، وأخواه، وبعد أشهر خرج والده، وأخواه، خرجوا بإعاقات ظاهرة، ومخفيّة، وفسدت رجْل أخيه التي كانت مصابة بطلق ناريّ، حيث راحت الذّئاب تنهش من اللّحم، وتلحس العظم حتّى تعطّلت، وكذلك فقد تحطّمت يد والده.

خرج زاهر بعدهم بثلاثة أشهر، خرج محطّم الجسد، خرج حيّاً بعد اتّصالات مثل زخّ المطر لكي يبقى حيّاً، وسوف يتوب، خرج حيّاً، وليس حيّاً، وليس مشياً على قدميه بالطّبع، ومضّت أربعة أشهر حتّى استعاد زاهر بعضاً من صحّته.

وتاب زاهر الكردي، تاب بعد الذي رآه، وعاناه. تاب الكردي عن التّصوير الذي أورده المهالك.

تاب زاهر، فانضمّ إلى الجيش الحرّ، فحمل السّلاح. لم يجد فرقاً بين فوّهة الكاميرا، وعدسة البندقيّة؛ كلاهما من آلات الحرّيّة، وكلاهما وسيلتان من وسائل الحقّ، وكلاهما يطلق بعضاً ممّا في حنايا النّفوس.

وعاش الكردي عروة بن الورد، فتارة يكرّ، وتارة يداوي الجرحى، وتارة يصوّر الآلام، وتارة يقوم بالاتّصالات، أو التّنسيق بين الأفراد في مجموعته.

اختار الكردي أن يكون حرّاً في جيش حرّ، واخترت أن لا أكون أسيراً في جيش أسير لدولة أخرى؛ فقد طلبت للخدمة في جيش ليس هو جيش بلادي؛ استدعيت لكي أقتل أخي، وأغتصب.... وأعذّب صديقي، وأدمّر مسجدي، وأدوس....، ولكي أتوضأ بالخمر، وأصلّي إلى الخنزير؛ فاخترت الهروب.

لم أعد أرى «زاهر»، ولكنّني كنت أرى أخباره؛ زاهر يلاحق الجرذان. زاهر يطارد جنود الفرار الآتين من أصقاع التّاريخ الأسود، وفي حين كان زاهر يطاردهم كانوا يركضون ورائي، طوّقوا المنزل، وكنت عائداً إلى البيت، فهربت، وهرولت، فرأوني، فركضت، وفرّت من قدميّ «شحّاطتي»،

ركضت حافياً، وإذا أنا أسفل تلّة، قالوا لي في ما بعد أنّني قفزت من أعلاها، لم أصدق، لم أشعر بذلك، واستمرّت المطاردة، البنادق خلفي، والأحذية الغليظة تلهث خلف عري قدميّ، ودخلت في حقل من الحقول، كان مفخّخاً بالأشواك، دخلت الأشواك إلى قدميّ، وساقيّ، ولكنّ الغريب أنّ أشواك حماه تلسع مثل نظرة المحبوب الأولى!.

وحجزت تذكرة السّفر إلى الأردنّ بتاريخ: ٣ ـ ٩ ـ ٢٠١٢م، يومها دخل الجيش إلى «الفرّاية»، وهي حارة حمويّة قديمة، وراح يحرّق البيوت العتيقة التي تمتاز بأنّ لها «أرض ديار» حيث البحرة الصّغيرة ذات النّافورة الحنونة العطريّة اللّطيفة. راح الجيش يحرّق البيت تلو الآخر، وكنت أحترق مع كلّ دعسة على سلّم الطّائرة، ولم تستطع مجموعة زاهر الكردي إلّا أن تساعد نفسها؛ تساعد أهلها بإطفاء النّيران؛ فتحرّكت المجموعة، وأغلق باب الطّائرة. صارت المجموعة كلّها في بيت يحترق، وراحوا يطفئون النّيران؛ يحملون المياه من بحرة «أرض الدّيار»، وفوقهم على الأسطح من الجهات الأربعة كانت أنياب الرّشاشات تبرق، وتشرئبّ، وتزعق شوقاً إلى دمائهم، وانطلقت رصاصات الحقد، والكره، والتّاريخ المزيّف، والعهر، وبلحظات كانت الرّشاشات تمزّق أشلاء المجموعة التي وقعت في كمين جيش «حماة الدّيار»، وكانت المجزرة التي عرفت «بمجزرة الفرّاية»!.

ونزل الجيش الكاسر إلى الأجساد، واستلّ سكاكينه الصّينيّة، وراح يذبّح الرّقاب، ويقتلع العيون، ويقطّع الأيدي التي كانت تحمل دلاء الماء، ثمّ أشعلوا النّار فيهم، وأحرقوهم جميعاً. كان زاهر الكردي هو صلة الوصل بين الذين يجلبون المياه من البحرة، وبين من يلقونها على جوع النّيران إلى الدّمار الأسود.

ارتفع الشّهداء، ونزلت طائرتي في الأردن، والآن أنا في لبنان بعد هروبي من جحيم الأمان في الأردن، وأنا الآن أكتب قصّة رفيقي زاهر، قصّة بعنوان هو اسم البطل، وأصدّر هذه القصّة بـ: ثورة النّواعير: شابّ مات، وشابّ بقي حيّاً.

ولن يخفى على فطنتك أنّ الحيّ ـ بالطّبع ـ هو زاهر الكرديّ!!.

بعلبك ـ الخميس:
١٤ آذار ـ ٢٠١٣م



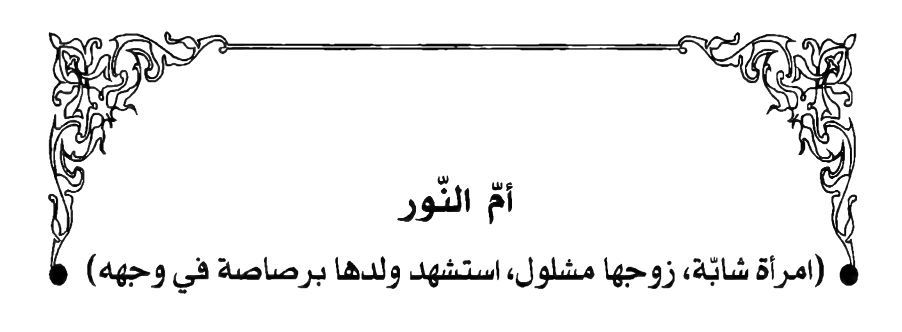


أمّ النّور

(امرأة شابّة، زوجها مشلول، استشهد ولدها برصاصة في وجهه)







أمّ النّور

(امرأة شابّة، زوجها مشلول، استشهد ولدها برصاصة في وجهه)

كان يوماً عاديّاً كباقي أيّام الذّلّ، والغربة في بعلبك التي نزحت إليها مع عائلتها؛ ثلاث بنات صغيرات، ورجل مشلول، وبقي ابناها ليجاهدا في سبيل الله، وحرّيّة الوطن الغالي: سوريا.

لماذا كانت اليوم تكثر من النّظر إلى مساحات وجه زوجها القابع في الزّاوية تحت بطّانيّته؟ ترى مساحات وجهه باتت ضيّقة. لم يبق فيها إلّا القليل من ياسمين الغوطة الشّرقيّة.

تحسّ بشوق متدفّق إلى وجه زوجها. تحسّ بشوق غامر، مع أنّه قريب منها جدّاً. تنظر إليه بحنان، وتدمع عيناها؛ ليس حزناً على شبابها الفضّيّ؛ فهي الآن في الثّامنة والثّلاثين، ولا زال في وجهها من نضارة الشّباب الكثير، رغم كلّ الذي قاسته حتّى الآن.

ابتسمت. كم كان عدد الخُطّاب كثيراً! هذا من دمشق، وهذا من حماه، وهذا... حتّى من لبنان، وها أنا في لبنان مشرّدة، بعيدة عن وطني، وعن أهلي، ونائية عن دفء زمهرير

بلدي، وبعيدة جدّاً عن عبق تراب الغوطة. يا ترى هل تمطر السّماء هناك الآن؟ ويا ترى، هل يجنّ ثرى الأرض بعطوره العنبريّة؟ هناك تركت ولديها، بل ربّما ولداها هما اللذان تركاها هنا.

ولداها قطعتا قلبها: حسين، ومؤيّد.

تحسّ بهذا الشّوق الكبير إلى زوجها، وهو قريب منها. لا، ليس هذا شعور الأنثى إلى ذراعي أمانه، وليس حاجة الأنثى إلى دفء حماية الزّوج. «لماذا أنظر إلى وجه «أبو مؤيّد؟»».

حكايتي مع «أبو مؤيّد» حكاية جميلة؛ حاربَ أهله، وأهلي حتّى انتصر عليهم جميعاً، وتزوّجنا، ولكنّه لم ينتصر على الجلطة التي أصابته بسبب ما رآه من مآسي الإجرام في سوريا، فوقع... في زاوية حجرة مستأجرة بمئتين، وخمسين دولاراً في الشّهر. وقع في زاوية الحجرة حيث لا ضوء يكفي للتملّي من النّظر؛ ولذلك كانت أمّ النّور توسّع حدقتيها، لتشرب من وجه زوجها أكبر قدر ممكن، ممّا يطفئ نار عطشٍ لم تفهمه جيّداً.

ـ: «شو بك أمّ النّور؟ شو بك عم تطّلّعي عليّي كتير اليوم؟».

كانت تحبّ أن يناديها دائماً «أمّ النّور» «يا أمّ النّور،

هاتي... يا أمّ النّور جيبي... من أوّل يوم خطوبة تجرّأ، وقال لها: «وجهك مليء بالنّور يا... أمّ الخير، والنّور»، ومن يومها إلى اليوم صارت «أمّ النّور» أنشودة الحبّ العذبة على لسان «أبو مؤيّد».

العاصفة تلمع، وتبرق، وترعد في الخارج. أبو مؤيّد مكانه، لا يتحرّك. البنات يرتبنَ الحجرة، يرفعن الثّياب النّاشفة إلى تعاليق الجدار، ويقرّبْنَ الثّياب المبلولة من بقايا النّار في مدفأة الحطب.

عاودت النّظر إلى زوجها، وتراءى لها وجهه يوم أتى ولدهما البكر مؤيّد، أشرق وجهه بألف شمس شاميّة: «انظري، انظري، يا أمّ النّور. كم يشبهك!! عيناه خضراوان، مثل أشجار الغوطة في مستهلّ الصّيف. انظري...!»، وغامت الأصوات في عينيها الخضراوين اللتين ترقرقتا. أين الأيّام الجميلة؟ أين نزهات الغوطة؟ ما الذي أتى بنا إلى هنا؟.

كبر مؤيّد. صار عمره سنتين، ولحق به حسين. لم يكن حسين بعينين خضراوين. لم يكن أبيض البشرة. لم يكن بخدّين مثل رغيفي خبز يزيّنهما اللّون الزّهريّ المشرق. حمله أبو مؤيّد، وراح يرقص فرحاً، وطرباً: «جاء حسين... هذا حسين!!». كان يوماً مشهوداً. أين ذلك اليوم؟ أين ولداي الآن؟.

كبر مؤيّد، وشبّ حسين، ونهلا من العلم، إلى أن ذهبا إلى خدمة الوطن: «ما أحلاكما بهذه الثّياب!! ما أحلى الوطن بكما!!».

الوطن!؟ من الذي سرق الوطن؟؟ من الذي سلب كرامة الوطن، وحريّة الوطن؟ كنّا نشعر بظلم فرديّ، فقلنا: لا بأس، لا بأس، في سبيل الوطن، ولكن ظهر أنّ المظلوم هو الوطن، كلّ الوطن.

وجاء الرّبيع، فصرخ أولاد درعا، وردّد المسجد الأمويّ في دمشق صدى أصواتهم، وانتفضت حمص لوجع أظفار درعا، ونزفت نواعير حماه، فتألّمت حلب، والقُصير، والزّبداني، وها هي دمشق تختار خيرة شبابها، ليشاركوا في زرع بذور الوطن في أرض الحرّيّة.

اختارت دمشق «مؤيّد، وحسين»، اختارت الغوطة الشّرقيّة ولديّ، نعم، ولماذا أعجب؟، تساءلت أمّ النّور، هما خيرة الشّباب، اختارتهما دمشق، فتركا جيشاً يقصف شعبه، ويحتفظ بحقّ الرّدّ في وجه أعدائه!!!، جيشاً يؤجّر المرتزقة. وجاءت الشّراذم من أصقاع الأرض؛ جاء كلّ عدوّ أحمر، بدماء زرقاء، ولكنّ ياسمين الشّام أبيض، وولداي قلبهما أبيض؛ ولذاك اختارتهما دمشق العريقة، واختارا التّطهّر من نجاسة القاتل المجرم. تركا الجيش، وفي ذهنهما صور «الشّبّيحة» الذين

يحملون السّكاكين الحمراء، والسّواطير الحمراء، والفؤوس الحمراء، والقلوب الحمراء. . .

تركا ذلك الجيش الوحش، والتحقا بركب الثّوّار. كانت تراودها هذه الخواطر، وهي تحدّق بقسمات وجه «أبو مؤيّد»، لتطمئنّ عليه إذا ما كان يريد شيئاً. رأت وجهه ساهماً إلى العاصفة، فإذا أبرقت السّماء لمع وجهه المجعّد الذي صار من دون مساحات، ولكنّها تذكّرت «أبو مؤيّد»، وهو يرقص فرحاً بحسين. تذكّرته، وهو يصرخ: «لا يشبهك، أمّ النّور،، ليس أبيض، لا لا، لا لا، لا لا لا، ليس بعينين خضراوين، لا لا، لا لا لا، لا يشبهك، وجهه أسمر، لا لا لا، عيناه عسليّتان، لا لا لا، خدّاه منبسطان، لا لا لا، لا يشبهك، بل يشبهني أنا، لا لا لا. . .».

«. . . ماذا يحدث في الشّام الآن؟ ماذا يحدث في الغُوطة؟ يا من يأتيني بخبر!! لماذا لا يرنّ الهاتف؟ لماذا أشعر بما أشعر به؟ هل لأنّني سمعت أنّ المعارك اليوم مستعرة في الغوطة؟ اليوم الجمعة، وكلّ جمعة يرسل لي حسين خبراً». «اليوم دمّرنا دبّابة. . . اليوم قبضنا على شبّيح. . . اليوم عمليّة في قلب دمشق. . . اليوم أسقطنا طائرة هيلوكبتر. . .».

«اليوم الجمعة، وأنا أنتظر، والله يحرسهما، اللَّهُمّ، سلّم، اللَّهُمَّ، سلّم، يا ربّ!!. . .».

دُقّ الباب، ومضى دهر قبل أن تفتح «ولاء» الباب. دخلت أمّ طارق الشّامي بعينين طافحتين بالصّمت، طافحتين بالأسى. نظرت أمّ النّور إلى جارتها، وأختها، وأستاذتها بمجلس الصّلاة على النبيّ، عليه الصّلاة والسّلام. نظرت إليها......... قالت بصوتها المتهدّج: «ماذ...؟ ما... بك؟؟ هل؟؟؟ هل هناك شيء؟ ماذا....؟».

تمتمت أمّ النّور كلمتين: «من...؟». كان السّؤال مؤلّفاً من كلمتين: «من؟ ودمعتين!». دمعتان سقطتا من عينين خضراوين. سقطت الدّمعتان من دون أحرف. تكلّم وجه أمّ طارق، وسكت لسانها. ارتفع حسين شهيداً برصاصة قنّاص انفجرت في وجهه! سكن الوطن، كلّ الوطن في وجه حسين، سقطت أمّ النّور على حصيرة اللّاجئين. منعها إيمانها، وحبّ النبيّ، عليه الصّلاة والسّلام، أن تنفجر بالصّراخ، وأن تمزّق الفضاء بالنّشيج والعويل، ولكنّها اكتفت بأن تطلق كلّ الحمائم من حقل عينيها الخضراوين!!.

ومضت ساعات، والصّمت يأكل الفراغ. نظرت إلى زوجها، وهو يبكي...

الآن... الآن عرفت لماذا تشعر بكلّ هذا الشّوق إلى وجه «أبو حسين!!».

الجمعة ـ الواحدة
صباحاً ـ ١١ كانون
الثاني ـ ٢٠١٣م

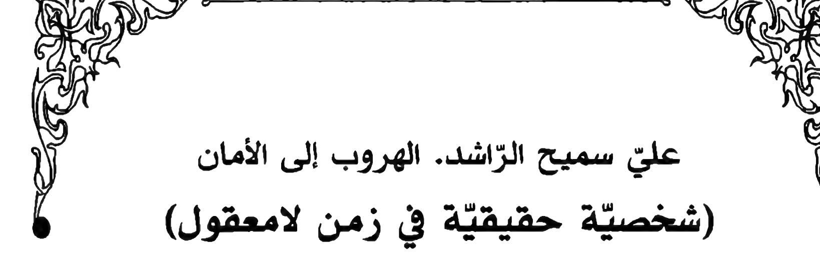


عليّ سميح الرّاشد. الهروب إلى الأمان

(شخصيّة حقيقيّة في زمن لامعقول)







عليّ سميح الرّاشد. الهروب إلى الأمان
(شخصيّة حقيقيّة في زمن لامعقول)

نبع الطّوفان من بين سواري المسجد الأمويّ، الذي كان يشعر يومها بالغربة والأسى في تلك الأمسية من آذار. كانت أمسية فيها لذعة من الشّتاء، وفيها نفحة من نفحات ربيع دمشق المميّز.

هبّت هذه النّفحة، فانتعشت ضاحية الزّبدانيّ «الفوقى» حيث كان يعيش عليّ، وعائلته المكوّنة من زوجة، وولدين؛ أحدهما رضيع.

عليّ راشد في التّاسعة والعشرين. جسمه «جسر»، هكذا يصفونه في الزّبدانيّ؛ طول بعرض، ولحية كثّة، متوسّطة الطول تملأ وجهه هيبة، وتزداد هيبته بعيني صقر، لا تستقرّان في ناحية.

وصل النّهر إلى الزّبدانيّ، فاشتعلت، ووصل الماء إلى ساقية تجري أمام بيته، فلم يتأخّر عليّ. حمل دلوه، وانطلق. ترك أمّ أحمد، وولديها، وانطلق مع الثّوّار إلى الشّمس. صعد معهم إلى أعالي الجبال، وهناك رأى القمر، كما لم يره من قبل. هذه المرّة، كان مرأى القمر مختلفاً.

انطلق مع الثّوّار، وصار واحداً منهم؛ ينتمي إليهم، وينتمون إليه. منذ سنة فقط كان واحداً من مجموعة أرقام أخرى، لا ينتمي إليها، ولا يعرفها، بل يكاد يكون رقماً نافراً عنها، ومنها؛ لأنّ الأرقام الأخرى لم يكن لها لون، ولا ترتيب، ولا هدف. كلّها أصفار إلى الشّمال.

انطلق مع الثّوّار. قالوا: «لا للظّلام»، فجاء الظّلام يدافع عن وجوده المشوّه أمام شعاعات الضّحى. جاء الظّلام بدبّابات، وطائرات، وسكاكين، وقذائف، وراجمات، وصواريخ. أتى الظّلام بجنود زرق، وحمر، وسود، وأمّن الظّلام حركته البرّيّة بغطاء جويٍّ من تصريحات الدّول الصّديقة والعدوّة على السّواء.

أمام هذه الأسلحة كلّها بدا عليّ، ومن معه قلّة؛ مواجهة غير متكافئة، وراح القصف الهمجيّ البربريّ يحصد الأيدي، ويمزّق البطون، ويقصّ الوجوه، ويعجن العظام، ويعرّيها من كلّ شيء. شرعت الطّائرات تشوّه السّماء؛ صارت تلقي براميل الحقد إلى البساتين البشريّة؛ فيرتقي التّفّاح إلى مكان هو أعلى بكثير من هذه الطّائرات الحديديّة، التي يطير بها أناس لا زالوا أحياء من يوم مشاركتهم بمذبحة بغداد!.

قصف رهيب. دمار فظيع. لمحه عليّ، وهو يقوم بمناوراته السّريعة الخاطفة، ولكنّه كان يتأمّله في بعض

النّهارات الهادئة. كان يرى أشلاء الأطفال ملتصقة بأعلى الجدران. أخذ أهلُها بعضَها إلى القبور، وبقي بعضها عصيّاً على الاقتلاع.

ويتجدّد القصف، ويتكرّر الرّعب، ويعلو الغبار، وتسقط السّقوف على أدمغة أصحابها، وينتشر الدّم، وتفوح له رائحة خاصّة. يتجدّد القصف، تتجدّد البراميل. تتجدّد الصّواريخ، يكثر القتل، تكثر الأيدي المبتورة، وتكثر العظام المهروسة. وبعد القصف يحدث الاقتحام، وتطلق النّيران السّوداء على الجميع، حتّى على الأخيلة الجامدة؛ فتحصد النّاس العزّل، ويهجم «المورلوك»، يحملون السّكاكين، والفؤوس، وراحوا يقصقصون بها الأطراف البضّة التي لم ترحمها رصاصة تستقرّ بسرعة، وغفلة في خلفية الجمجمة.

انتشر جنود الظّلام في الأحياء، وأوقفوا من يرونه أمامهم إلى الجدر. شابّ أعدموه بطلقة في رأسه رجل أوقفوه إلى الحائط، وصاروا يمزّقونه بسكاكينهم، وهو لا يستطيع أن يصرخ، لا يحقّ له أن يصرخ، سألوه: «بدّك الحرّيّة؟؟»، أجابوا هم: «قال بدن الحرّيّة. خود هي هيي الحرّيّة». يهوي إلى الأرض. يقع مهزوماً أمام جبن العالم بأسره!!.

كان عليّ يرى كلّ ذلك بقلب حاضر في حارة قريبة.

كانت صرخات التمزّق تهشّم صخور الزّبدانيّ. الوحوش لم يرحموا أحداً! وكيف يفعلون فهم وحوش؟!!.

هكذا كان عليّ يفكّر إذ يسمع الصّرخات، ويلملم الأصابع النّديّة الطّريّة المقطّعة من الأرجاء، ويجمع الجوارح الصّغيرة، ويدفنها، وينتشل الجثث من تحت أطنان الرّكام. في هذا الجوّ الملبّد أحسّ عليّ بالخوف.

شعر عليّ بالخوف، ولكنّه لم يبح بذلك لأحد. لم يتحمّل كلّ هذا الضّغط؟ عاد مسرعاً إلى البيت. حزم بعض الأمتعة الخفيفة. صرخ: «أمّ أحمد، يا الله، إنتِ ولواد. رايحين ع لبنان». حمل ما لا يستغنى عنه، وانطلق في رحلة أسطوريّة في أعالي الوديان، ومنخفضات التّلال. تحت صقيع الشّمس، وبرد القلوب، حتّى وصل إلى بعلبك في لبنان.

مضت أيّام صعبة، ولكنّها لا تقارن بما يحدث في الزّبدانيّ. مضت أسابيع، وسعى عليّ إلى العمل في سبيل قوت عياله، ولكنّه لم يستطع أن يتخلّص من صور الجثث التي بلا رؤوس، والأرجل التي بلا أصحاب، لم يقدر على نسيان صورة الطّفل الممزّق نصفه تحت حجارة بيتٍ أبى أهله أن يتركوه للوحوش. كان يرى رائحة الموت، ويشاهد تموّج أنّات الرحيل!.

وتحدّث النّاس في الزّبداني: «وين الجسر؟!» ـ «هرب

الجسر... خاف الجسر». قال أحدهم لآخر: «هل رأيت؟؟! ليست الشّجاعة بضخامة الجسم!!».

ـ: «صحيح، كانت له ضربات قويي، واقتحامات عظيميي، ولكن وينو هلّق؟!».

نعم، شعر عليّ بالخوف، هو لا ينكر ذلك، وها هو، وعائلته ـ الحمد لله ـ في بعلبك. أما شعر النّبيّ موسى بالخوف؟؟ ألسنا بشراً؟! كان عليّ يهدُس بهذه الأفكار... قلت لرفيقي: «هل تعرف عليّ؟».

قال: «طبعاً، معرفة قويّة».

سألته: «وماذا يفعل هنا في لبنان؟».

أجاب: «مثل النّاس».

قلت: «كيف مثل النّاس؟؟ هو ليس مثل النّاس، هو طويل، وجسيم، وقويّ، ويبدو مثل الطّير الكاسر!».

قال: «صحيح»؛ فقلت: «وماذا يفعل هنا؟»؛ فصرخ في وجهي: «لقد ترك زوجته، وولديه، وعاد إلى الزّبداني، ولكن، لم يهتمّ أحد، نعم، لم يأبه أحد لأمر عائلته؛ لا أجرة بيت، ولا أكل، ولا طعام الطّفل، ولا حليب للرّضيع!! سمعتَ؟ وصلك الجواب؟».

سكتُّ لدقائق، ثمّ قلت: «حقّاً؟!».

قال، وقد عاد إليه هدوء المحارب الذي جلس يلتقط أنفاسه: «نعم، حقّاً». عاد الصّمت ليخيّم من جديد، وصارت الأفكار تسبح في كلّ الاتّجاهات مثل الأسماك.

قلتُ: «هل تتكفّل بمبلغ لزوجة عليّ؟».

ردّ مرحّباً: «نعم».

قلتُ: «سأدفع مئة، وخمسين دولاراً شهريّاً».

فقال: «ومنّي مثلها».

قلت: «وليعد عليّ إلى الزّبداني».

قال: «سأكلّمه».

وبعد ثلاثة أيّام، كان عليّ قد ترك شغله، ولم يحزم ـ هذه المرّة ـ أيّة أمتعة، ولم يطل وداع الزّوجة، والولدين؛ قبّل أحمد، وشمّه، وضمّ عبد المجيد، وعصره في صدره، ووصّى أمّ أحمد التي دمعت عيناها وردتين زهريّتين، وانطلق عليّ مسرعاً.

وبعد ليل ملحميّ، وصل فجراً. وصل، وكانت العمليّة على وشك البدء؛ فأخذ موقعه بين زملائه. كانت عمليّة إزالة الحاجز الأقسى في الزّبداني. لم يسأل عن دوره؛ هو يعرف دوره جيّداً، ويعرف مكانه عن ظهر قلب. شرع الثّوّار بإطلاق زعيق الحرّيّة نحو ضباب الظّلام، وراح عليّ يطلق صرخاته

الجارحة التي يعلو صوتها على زئير رصاصه، وكان الرّدّ على رصاص الثّوّار القصف بالرّاجمات؛ رصاصة من هنا، وقذيفة هاون من هناك، قذيفة آر بي جي من هنا، وصاروخ سكود من هنالك، وراح الدّمار يملأ الفراغ ما بين الأبنية، ويمزّق الشّوارع، ويشظّي النّاس.

كان على وجوه رفاق عليّ ما يكون على وجوه المقاتلين في ساحة المعركة الصّعبة من العزم، والتّوتّر، وشيء من الخوف، والتّرقّب، والحذر، والخوف، إلّا «عليّ»، فقد ارتسم على وجهه كلّ شيء إلّا الخوف؛ فهو الآن، والآن فقط، استقرّ الأمان في قلبه، وفي هذه اللّحظة راحت تتفتّح على وجنتيه زهرتان آمنتان، ويفوح عطر ياسمين الشّام؛ يفوح وحده، يتسامى إلى عنان السّماء، ويملأ كلّ الأرجاء.

السبت:
١٢ ـ ١ ـ ٢٠١٣م

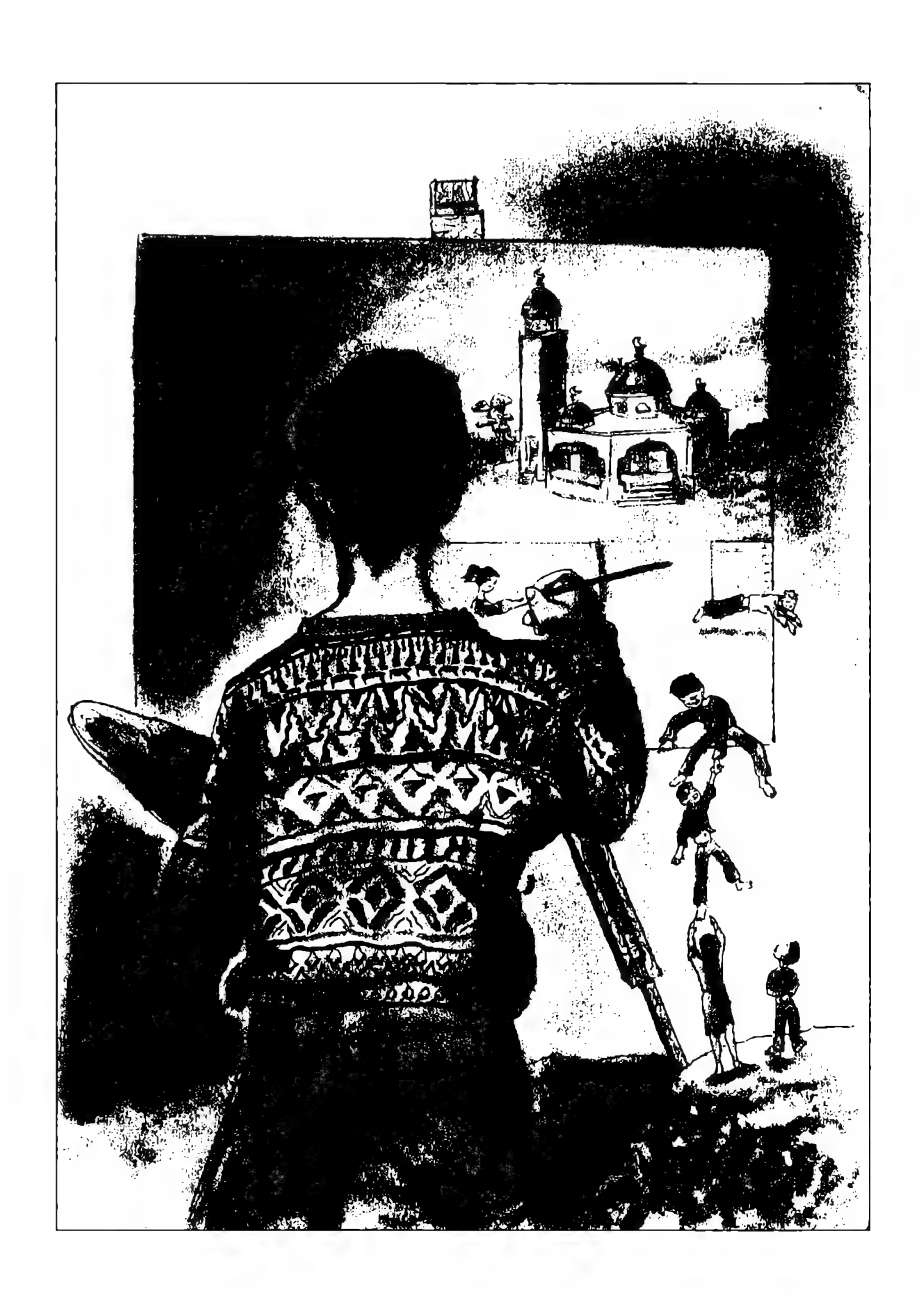


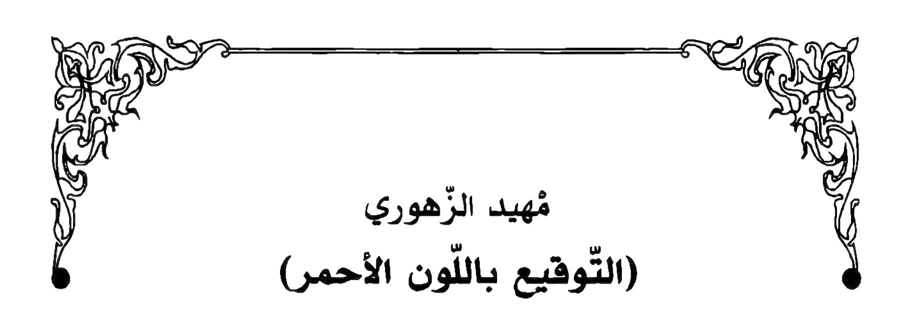


مُهيد الزّهوري

(التّوقيع باللّون الأحمر)







مُهيد الزّهوري
(التّوقيع باللّون الأحمر)

كانت المساحة بيضاء، ولكنّه لوّن خلفيّة اللّوحة باللّون الأخضر، وفي صباح اليوم التّالي رأى المسافة المنطلقة أمام بيته في «القْصير» صارت حقلاً أخضر زاهياً، فيه آلاف العصافير التي تصنع مهرجاناً، وهي تلتقط رزقها من هنا، وهناك.

وفي صبيحة اليوم الثّاني رسم سماء صافية، فيها قمر، فيها نجوم. كان الزّمن شتاء، وفي المساء أشرق بدر تلك الأمسية، وراحت نسائم الأنس تداعب شعر مْهيد، وهو يلتقط لطائف اللّيلة السّاحرة الآسرة.

غريب!! رسم ربيعاً، فجاء ربيع. رسم قلباً، فتزوّج حبّاً سوريّاً!.

وفي يوم، خطر لمهيد أن يرسم مسجداً، فيه يرتفع الأذان، فيه يصلّى، فيه يعلّم القرآن. رسم مئذنة، وتوقّف عن الرّسم، وفي اليوم التّالي لم يحدث شيء.

ـ: «أحبّ أن أرسم باللّون الأحمر، وباللّون الأسود».

ـ: «لماذا؟».

ـ: «لون الأحمر لون الدّم، لون الحرّيّة، لون ثمن الأشياء، لون روح الأشياء».

ـ: «والأسود؟».

ـ: «الأسود لون ظلام الأشياء، لون ظلم الجماد للأحياء، واللّونان مع بعضهما إظهار للكون بشكل أوضح، خاصّة على خلفيّة اللّوحة البيضاء، التي هي النّفس البشريّة الصّافية».

مْهيد الزّهوري في العقد الرّابع من العمر، من «القْصير»؛ قرية مميّزة في ريف حمص، قريبة جدّاً من لبنان. لهجة مْهيد لهجة أهل القْصير مع تمطيط محبّب آخر الكلمة. مهيد فنّان بالرّيشة، وباللّون الأحمر. عندما كان مهيد ينهي لوحة كان يوقّع اسمه أسفل اللوحة باللّون الأسود المتموّج، مع إطالة لحرف الياء، رامزاً فوقه بما يشبه السّرير، وما كان أحد يعرف سرّ هذا الرّمز.

استيقظ اليوم باكراً. تناول الفرشاة. مزج الألوان. شرب القهوة بشغف عطر الفجر المنتشي بعطر حمص الشّام. لمعت فكرة. هيّأ لوحة. أغمض عينيه. استدعى ملَك الرّسم. لمعت فكرة؛ رسم ولداً يلعب، وقربه ولد يركض، رسم ولداً آخر، رسم ولداً يخرطش على الجدران، رسم ولداً بعد. ضجّت اللّوحة بالأولاد. ضجّت، حتّى قفز الأولاد، راحوا يهربون من

اللّوحة، وهو يسعى لإعادتهم إليها، وأخيراً كتب اسمه أسفل اللّوحة، وكتب التّاريخ: آذار الحياة.

وفي اليوم التّالي قُبض على الأولاد في درعا، واقتلعت أظفارهم، ولا يعلم أحد لماذا غضب أهلهم!! ألان السّجّان قال: «هاتوا نساءكم لنجعلهنّ ينجبن لكم أولاداً غيرهم؟!؟ لماذا تغضبون؟!».

خاف مُهيد من الرّسم في نيسان، ولكنّه عاود الرّسم، فرسم هلالاً فوق المئذنة، ورسم باحة كبيرة للمسجد، زخرفها بالياسمين الشّامي الشّذيّ، ولكن في اليوم التّالي لم يحدث شيء.

ومضى يومان، هيّأ لوحة جديدة، وراح يرسم سيفاً عربيّاً بهيئة فارس على صهوة فرس عربيّة نجيبة؛ الفارس بعينين حادّتين ثاقبتين، وأنف دقيق كالرّمح، وبلحية سوداء مغبرّة مرعبة، تملأ صدره، وبفم «مزموم» بحزم، بفم لا يتكلّم إلّا بـ: «الله أكبر، يا خيل الله اركبي!».

وفي ظهيرة اليوم الثّاني، بدأت الدّبابات تقصف حمص الخالديّة، وباب عمرو، وباب السّباع، وشرعت الطّائرات تبذر الموت، وبدأت السّكاكين تقطّع الأشلاء، ودخل التّتار مسجد سيّدي خالد بن الوليد، الذي كان في غفوة التّاريخ، وكان هناك لوحة على الجدار لفارس بطل يحاول التقاط سيف عربيّ سقط من يده!.

ومضت أيّام، كان مْهيد خلالها دائم التّفكير: ماذا سأرسم؟، وكيف سأرسم؟، وأخيراً قرّر رسم ناعورة حمويّة عجوز تئنّ من ثقل السّنين، رسمها تتعالى، ولكنّها لا تعلو على العاصي، بل تعلو به إلى حيث يقف شابّ يدعى «زاهر»، يلقي بنفسه سبّاحاً ماهراً من أعلى النّاعورة إلى الماء الطّريّ. رسم ناعورة، وراح يصغي لصوتها الموجوع من ثقل ظلم السّنوات الطّوال. هذه أوّل مرّة يسمع صوتاً صادراً من ناعورة على لوحة من لوحاته!!.

وفي ضحى اليوم التّالي، تقدّم جيش من الرّعب الأبيض. انطلق من ساحة العاصي إلى المدخل الجنوبيّ لحماه، وإذا بالصّنم يلملم غشاءه المخاطيّ، ويهرب، ويترك مكانه ليصير قمامة للقاذورات.

ـ: «هل أنت نبيّ، يا مْهيد؟».

ـ: «لماذا تقول ذلك؟».

ـ: «لأنّ كلّ لوحة ترسمها، لا بدّ وأن تكتمل خيوطها في الحياة الواقعيّة».

ـ: «لا أدري، ولكنّني سأرسم اليوم صوتاً يصدح: الله، سوريا، حرّيّة، وبس».

ـ: «كيف سترسم الصّوت، يا مْهيد؟».

قال مهيد: «راقبني»، وانطلق مهيد في تلك الأمسية الصّيفيّة الأسطوريّة. انطلق بسرعة اللّون إلى ساحة القرية، لم يكن أوّل الواصلين ولا آخرهم، ولكنه اعتلى المنصّة بسرعة اللّون الأصفر، وصرخ بصوت لونه قرمزيّ: «الله، سوريا، حريّة، وبس»، فجاوبته كلُّ الألوان: «الله، سوريا، حريّة، وبس». أعاد الجملة الموسيقيّة، فردّت كلُّ الخطوط: «الله سوريّا، حريّة، وبس». صرخوا بقوة. صرخوا بشراسةِ ذئبٍ برّي لونُه أغبر، وقد اصطاد أوّلَ فريسة؛ اصطاد خوفَه، ومزّق صوته لون السّماء اللّيليّ الغامض.

كان لمهيد قطعة أرض أمام بيته، فكان يعمل فيها عندما كان يتعب من عمله كفاعل خير يصالح بين الألوان والخطوط، ويؤلّف بينها. كان يذهب إلى أرضه. هناك كان يريد أن يبني لله مسجداً، يريد أن يبنيه وحده بلا مساعدة أحد، أو تبرّع أحد؛ فكان يعمل حتّى إذا تعب، عاد إلى سماع شكوى الألوان، واستمع لحججها، وحكم بينها بعدل، فعادت كلّها راضية، فكانت لوحة.

نظر إلى لوحة المسجد، فكّر، رسم سجّادة صلاة، ولكنّه احتار أين يضعها. ترك الرّسم، وانطلق إلى الأرض، وراح يرسم بالمعول على لوحة الأرض خطوطاً، وأخاديد، راح يقتلع نقطة صخريّة بيضاء ملساء، فتترك أثرها تجويفاً مثل علامة

الاستفهام التي بلا جواب. ترك الرّسم، وانطلق إلى السّاحة يغرّد مثل عصفور كناريّ أصفر؛ يغنّي صوته، وتبدع يداه.

بعد أسابيع، اشتعل الشّوق في يده؛ اشتعل الشّوق إلى ياسمين دمشق، فامتشق ريشته، ونصب لوحته، ورسم مسجد بني أميّة الكبير، رسم الشّيخ عبد الرّزّاق الحلبيّ في مجلسه صامتاً واجماً مفكّراً. رسم باحة المسجد الأمويّ، ورسم الخليفة معاوية يتوضّأ بماء عربيّ صافٍ خالص. رسم أذاناً. رسم عطراً. رسم الخليفة يصلّي، وتتقاطر نقاط النّور من لحيته إلى بلاط المسجد الذي صار يلمع، ويبرق، ويرعد كلّما مسّت نقطة نور من أنوار الوضوء بلاط التّاريخ.

وفي أصيل اليوم التّالي، جاءت كتيبة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، إلى دمشق من أجل تحريرها، أو من أجل نيل الشّهادة في سبيل الوطن.

واشتعلت دمشق، واشتعلت دمشق: الميدان، برزة؛ كفرسوسة، اشتعلت جوبر، المزّة، الميدان، ساحة العبّاسيين، سوق الحميديّة، ساحات بني أميّة، ولكنّ قاسيون كفر ببني أميّة، ومدّ يده متحالفاً مع النّار، ورضي أن يقف زرداشت الأسخريوطي على ظهره، لكي يقصف أحياء دمشق القديمة، وسوق الهال. رضي قاسيون أن تقتل ميسلون، وأن يغتال نزار قبّاني، وأن يؤسر الماغوط، ويسجن سعد الله ونّوس مرّة أخرى.

من أجل ما حدث، هُرع مهيد إلى لوحة جديدة، يرسم قاسيون جديداً، قاسيون نظيفاً. واشتعلت دمشق بالطّائرات، وألقت قنابلها العنقوديّة، فاحترق الأطفال، وقطّعت أوصالهم، وقصّت أطرافهم، وأعدم النّاس على الطّرقات، وأحرقت جثثهم،، وأسملت عيونٌ، وانطفأت أعراضٌ، ودمرت بيوتٌ، وارتعب الأمانُ، وشرّدت النّاسُ، ولكنْ، ولكنّ قاسيون عندما رأى هذا عاد إلى الإيمان، وكفر بالطّاغوت، ورمى زرداشت عن صهوته، وداس على رستَم تحت سنابكه، ومزّق هولاكو بحوافره، وانتفض مارداً جبّاراً حرّاً، وراح يدافع عن دمشق الياسمين بذراعيه، وصدره، ودمائه من جديد.

أسرع مْهيد إلى اللّوحة، ليزّين قاسيون بالألوان «الزاهيية»، بلهجة مهيد، بعد أن خلع عنه ألوان السّواد الآتية من جهة الغروب. تعب مهيد من الفوضى، فأراد رسم لوحة منظّمة؛ تناول الفرشاة، رسم صوراً على لوحة، لكنها لا تبدو واضحة المعالم؛ بدت الصّور أشباحاً، بدت أطيافاً، بدت وجوهاً. استغرب! بدت وجوه الأشباح تشبه وجوه الصّحابة: سعد، عليّ، وعمر، ويزيد بن أبي سفيان، وشُراحبيل، وخالد، والمثنّى؛ ما الذي جاء بهم؟ أحبَّ مهيد أن يكون معهم؛ فشرع يرسم وجهه بين الوجوه. أحسّ بالسّرور، فاكتفى من نشوة الرّسم، فانطلق إلى المسجد، وبدأ يعمّر بعض الحجارة،

وركّب باب «التّصوينة»، فلما تعب من العمل، عاد إلى رسم لوحة المسجد، ويا للغرابة! وجد رسماً لتصوينة للمسجد الذي لم ينته بناؤه بعد!استغرب، وأراد أن يخفّف استغرابه، فانطلق إلى السّاحة، وصار يصرخ: «الله، سوريا، حريّة، وبس».

وفي اليوم التّالي، تشكّلت ألوية جديدة للجيش الحرّ، وها هو الجيش الحرّ يبذر للحرّيّة في كلّ الأرض الطّيّبة من بلاد الشّام المباركة. نظر مْهيد إلى لوحة الأشباح، وجد وجهه يزداد وضوحاً، مع كلّ دقيقة تمرّ يزداد وضوحاً، وإشراقاً.

وجهي مع وجوه الصّحابة!!. تشدّني هذه اللّوحة. هذه اللّوحة ترسمني. أحاول أن أخرج نفسي منها بالقوّة، لكي أذهب إلى عمارة المسجد. لا أريد أن يساعدني أحد. أسرعَ إلى اللّوحة، رسم محراباً، ثمّ ركض إلى الأرض، فتكوّن المحراب أمام عينيه. هُرع إلى اللّوحة، رسم إماماً يصلّي، وهرول إلى المحراب، وصلّى بخشوع، وائتمت خلفه بعض الوجوه.

تعب مهيد من السّعي بين الصّفا، والمروة، فأراد الطّواف حول الكعبة، فاختار أن يلبَس ثياب الإحرام المرقّطة. أراد أن يرتاح. أراد أن يكون وجهاً حقيقيّاً بين الوجوه في اللّوحة.

ـ: «إلى أين ستذهبون اليوم؟».

ـ: «إلى البُرْهانيّة».

ـ: «وماذا سنبرهن؟»، قال مهيد ممازحاً رفاقه المجاهدين، ثمّ أردف: «وهناك. . . ؟».

ـ: «نعم، اشتباك؛ إزالة الحاجز».

ـ: «أنا معكم»، قال مهيد.

ـ: «هناك دبّابات».

قال مهيد: «أنا معكم».

ـ: «ستكون معركة قاسية جدّاً».

ـ: «أنا معكم. . . قلت لي: اسمها البرهانيّة؟».

ـ: «نعم. . . ».

كلّ شيء في الدّنيا له حقيقة؛ فما هي حقيقة أنّك رسّام كبير؟ ـ «سأبرهن لكم». وفي المساء، راح مهيد يتأمّل لوحة المسجد. لم تكتمل، فلاحت منه نظرة إلى الأرض التي يبني عليها المسجد، فرأى جدران المسجد مثل السّراب المتماوج. نظر إلى اللّوحات الباقية، فرآها مكتملة، إلّا لوحة وجوه الصّحابة، فحزن مهيد؛ لأنّ اللّوحة لم تكتمل بعد. اقترب منها، شمّها، فوجد رائحة المسك تملأ الدّماغ كلّه بسحرها، فتسكره بنشوة الحديقة الدّمشقيّة. من أين تنبعث هذه العطور؟. نعس مهيد من الشّذى؛ فنام كطفل صغير في حقل ربيعيّ أخضر، يتوسّد العشب، ويلتحف العطر الأزرق، واستيقظ على

قرع ورديّ على بابه، فخرج. كان لابساً ثيابه المرقّطة البيضاء. صلّى الفجر مع رفاقه، كانت وجوههم تشبه الوجوه التي في اللّوحة. صلّوا بسكينة، ووقار، صلّوا بكلّ خشوع، وهدوء؛ فهم بعد قليل سيشعلون الكون بالتّكبير، سيحرقون الفراغ بالطّلقات، وسيمزّقون لحم الصّمت، سيهشّمون عظم الذّلّ الذي نبت من أربعين سنة، سيكسرون زجاج الضّيم. «الله أكبر، الله أكبر». اصرخ، يا مْهيد: «الله أكبر، الله أكبر»، صرخ مهيد. «اصرخ، يا مْهيد، ولوّن هذه المعركة». صرخ مهيد: «اليوم، سأرسم بالكاميرا، سألوّن بالعدسة». «انتبه، يا مهيد». صرخ: «الله أكبر». صرخوا: «انتبه».

ـ: «ما أحلاك، يا شام!»، وراح مهيد يتحرّك، ويلتقط بعينيه ما تلتقطه الكاميرا التي يحملها. سأصوّر كلّ شيء، وسوف أرسم كلّ شيء، وسأسجّل كلّ شيء، سأصوّر بطولتكم. أصوّر بطولتي. سأصوّر أعظم لوحاتي. سأصوّر شهادتي: «انتبه، مهيـــد». أنا منتبه، منتبه جدّاً. أرى هذه الدّبّابات الثّلاثة التي تقصف نحونا، أراها كالبعوض. . .

ـ «مهيد، انتبه، هناك رابعة في الخلف. . . إنّها. . . و. . . هنا. . . و. . . صمت، وهدوء، ولكن بضجيج عظيم في الأذنين. «أين ذهب صوت زملائه؟». استغرب مهيدْ!؛ أنا أحسّ بهم، لكنّني لا أسمعهم. لماذا تحملونني؟ هاتوا

الكاميرا. يوجد شيء ساخن لزج على أيديكم... لا أراكم، لكنّني أشعر بحرارة أجسامكم... دعوني... أكملوا النّصر. أنا أرى النّصر... أرى... لقد سقط الموقع، ولكن هناك زمن ضائع... لم أشاهد كيف سقط الحاجز... كيف أراكم، وأنا مغمض العينين؟ غريبٌ هذا، لماذا؟!.

لماذا جئتم بي إلى لبنان؟ أنا أشمّ رائحة المسك. من أين تأتي هذه الرّائحة «الزّاكيية»؟ لماذا أحسّ بغرابة من يعود من رحلة التخدير؟.

ساعتئذ، كان إخوة «مهيد» يقفون خارج غرفة العمليّات في مشفى ببعلبك. كانت العمليّة صعبة؛ صعبة جدّاً، وحرجة.

شظايا عديدة استقرّت في جسده الغضّ، وتمزّق شيء منه بسبب القذيفة التي أطلقتها الدّبّابة الرّابعة.

كان مهيد يتابع تساؤلاته، بينما كانت الوجوه في لوحة الوجوه تزداد وضوحاً. صارت تتكوّن ملامح الوجوه، وتظهر التّجاعيد المنيرة، وبدأت تتلوّن سحنتهم بسمرة الجزيرة العربيّة. صارت أسئلة مهيد تقلّ، بينما صار يحسّ بالوجوه في اللّوحة تتجسّد بنعومة، وتلوّنت حدقات العيون، ورفعت الأيدي بالسّيوف، وصرخت الأفواه بالتّكبير. سكت مهيد عن ضجيج الأسئلة؛ فانطلقت الوجوه في اللّوحة بالصّراخ الذي يشقّ لحم الصّمت.

سكت مهيد، فظهر وجهه جليّاً مشرقاً ساطعاً في وسط الوجوه، ونام مهيد على سرير المشفى في بعلبك.

نام مهيد، ولكنّه أبى إلّا سريره في «القْصير». حمله إخوته إلى حيث كان يبني المسجد وحده، وهناك زرعوه قرب مسجده. زرعوه، وعادوا، وأحسّوا بالشّوق إلى لوحاته. أرادوا رؤية اللّوحات، وخاصّة اللّوحات التي لم تكتمل. دخلوا المرسم بخشوع. تفاجأوا، لقد أنهى مهيد لوحة المسجد، ووجدوا لوحة جديدة لم يروها قبلاً. لم يعرفوا أنّ مهيد بدأ بهذه اللوحة؛ وجدوا لوحة للصّحابة الكرام، وكان في وسطهم... في وسطهم تماماً... وجه مهيد!!.

كانت كلّ اللّوحات بتوقيع أسود قديم، إلّا لوحة الصّحابة كانت موقّعة باللّون الأحمر: «مهيد الزّهوري».

الآن... عُرف سرُّ السّرير المرسوم مع التّوقيع باللّون الأحمر.

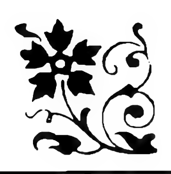
بعلبك: ١٣ ربيع الأوّل ١٤٣٤هـ
٢٦ ـ ١ ـ ٢٠١٣م



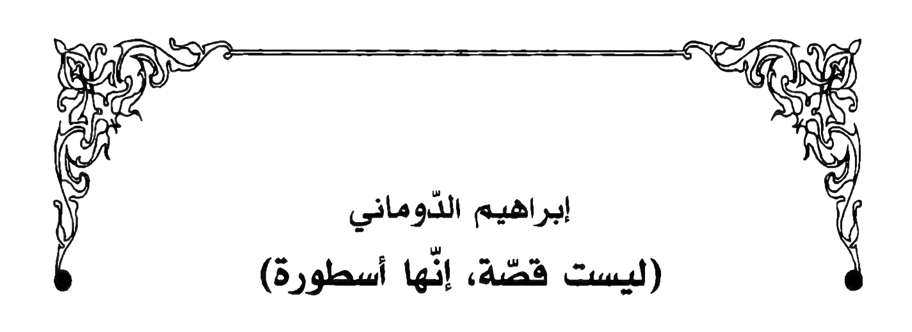


إبراهيم الدّوماني

(ليست قصّة، إنّها أسطورة)







إبراهيم الدّوماني

(ليست قصّة، إنّها أسطورة)

قال «سأخبرك قصّتي». سكت، وأراد الكلام، ثمّ سكت قبل أن يتكلّم، ثمّ قال: «لا أستطيع الكلام، سأكتبها لك غداً. أنا لا أحسن الكتابة، ولكن سأحاول».

ومضت ليلة الغد، ولم أر إبراهيم. أرسل رسالة يقول فيها: «لم أستطع أن أكتب شيئاً؛ كانت الصّور تهجم على رأسي بعنف، فلم أقدر على تسجيل أيّ شيء، كنت مريضاً».

رأيته بعد يومين. رأيت رأسه أصلع، وهو الشابّ في العشرين. سألته، فأجاب: «شعري يهرّ»؛ فنصحني الدّكتور بحلق شعري كلّه». تغيّر منظره، صار عجوزاً بدون تجاعيد، ما عدا تجاعيد الذّكريات القريبة. مدّ يده، أعطاني ورقة، وقال: «هذه هي القصّة».

كانت القصّة المكتوبة بدائيّة اللغة، وحشيّة المعاني. قال لي: «هي قصّة جيّدة؛ فيها قتل، واغتصاب، فيها تشريد، فيها تقطيع، ولجوء، فيها ربطة خبز ثمنها شهيدان».

قرأت القصّة، هي قصّةُ بيتٍ في «دوما»، ويمكن أن

تكون قصّة أيّة عائلة سوريّة؛ اغتصبت بنتها، وقتل شابّها، أو قطعت يد معيلها، وشرّدت خارج حدود أمنها، أيّة عائلة قصفت حديقتها بالسّكود، أو بالسّكوت. ما بين الدّال، والتّاء قرابة، ونسب.

قلت: «سيّارتك مصابة بعدد كبير من الطّلقات». قال: «يومها، كانت حالة رعب بعد مظاهرة دومانيّة حاشدة، وجاء تيمورلنك على حصانه جنكيز خان. جاءت الدّبابات، ومن خلفها الفايكنغ، والتّتار، وهرب البشر من أمامهم اتّجاهات. يومها كنت في دمشق لحاجة اضطررت لها، ورجعت إلى «دوما»، فإذا هي ساحة حرب، بين جيش مسلّح، وعصابات مندسة سلفيّة مؤلّفة من أطفال، ونساء، وشيوخ، وشباب محطّم من أربعين عاماً، ورجال اشتمّوا رائحة الحرّيّة والكرامة لأوّل مرّة.

كانت الحرب بين جيش مسلّح بكلّ صمت العالم، وعمى العالم، وعمى الألوان، وكانت العصابات المندسة مسلّحة بصدورها العارية إلّا من الإيمان.

دخلتُ «دوما» وانعطفت بسيارتي إلى طريق فرعيّة، وإذا بامرأة على الرّصيف تستنجد بي، وتصرخ: «وصّلني، كرامة لله». صراخ الرّصاص، وزعيق القذائف، وطعم الدّم مثل قطرة العين المرّة في الفم. قلت: امرأة على ناصية الطّريق،

ولو كانت بالحالة العاديّة ما كان منّي إلّا أن أوصلها حيث تحتاج، فكيف بي، وهي على هذه الحالة من الرّعب، والذّعر؟!. هذه المرأة قد تكون أمّي، أو أختي!: «اركبي، يا خالة، وين بدّك توصلي؟».

ـ: «زكاتك، شارع الكرامة، بناتي لحالهن بالبيت!».

قلت: «يا خالة، بس شارع الكرامة مسكّر، وما في إلّا زاروب واحد، وفي حاجز من أصعب حواجز الشّام».

ـ: «الله يرضى عليك، قَد ما فيك».

ـ: «بوصل قبل الحاجز».

قالت: «الله يوفقك، ويحفظك لأهلك، متل ما بدّك».

عملت حساباتي، ورحت أحلّ أحجيات الطّرقات، فأنزل من مكان لأصعد بآخر، وأدخل في حارة لا تدخلها سيّارة، أو آخذ طريقاً ترابيّاً فرعيّاً للمشاة، وأخيراً، وصلت إلى أوّل شارع الكرامة. سألتها: «وين بدّك تنزلي؟».

ـ: «مطرح ما بتريد».

قلت: «عند النّاصية، منيح قبل ما نوصل ع الحاجز؟».

ـ: «الله يبارك فيك».

لم أكن أرى شيئاً إلى يمين النّاصية، أعرف أنّ الحاجز آخر الشارع إلى اليسار، فقلت في سرّي: أنزلها عند النّاصية،

وأهرب يميناً، ولدى وصولي إلى النّاصية، وقبل أن أقول لها: انزلي، وإذا بي أفاجأ بأنّ الحاجز الذي كان إلى اليسار قد انتقل إلى اليمين، وإذا بي أرى نفسي وجهاً لوجه مع عناصر الحاجز المدجّجين بأوامر القتل. لم أفكّر. لم يكن لديّ وقت للتفكير. دست على البنزين بسرعة، وعنف، ورجعت إلى الوراء. فعلت ذلك، ولم أفكّر، وعناصر الحاجز لم يفكّروا، بل أمطروا السيّارة بوابل من طلقات القتل الحمراء. ابتعدت عن الحاجز، والرّصاص ينهش لحم السيّارة، وأيقنت بالموت، إلّا أنّ الحياة انبثقت من رصاصة أصابت الزّجاج الأمامي، فإذا به يتهشّم دون أن يسقط. كان الزّجاج من النّوع الذي ينكسر، فينكمش، وتتعطّل الرؤية، وبهذا بقينا أحياء؛ فالعناصر ما عاد يروننا من خلف الزّجاج المحطّم الذي صار كالضّباب. كنت أقود السيّارة، وأنا تحت المقعد، فصرت أستعين بالمرأة، فتقول: يميناً، أو مباشرة، أو يساراً، لكنّ المرأة ما لبثت أن سقطت بطلقة حاقدة عمياء، ولا أدري، صرت أسمع صوتي، وكأنّه صوت شخص آخر يقول: ابقي في الأسفل، وكنت أرجع بالسّيّارة، وكان الرّصاص مثل البعوض يلسع في كلّ النواحي، والاتّجاهات، وما إن ابتعدت عن مرمى نيرانهم، حتّى هُرع النّاس لمساعدتنا. كانت المرأة تصرخ من الرّعب، ولكنّها كانت تفعل ذلك دون وعي. نزلنا من السّيّارة، وكأنّنا خرجنا إلى الحياة من القبور. أمسكتُ

المرأة التي كانت تترنّح بسبب إصابتها بطلقتين؛ واحدة في كتفها، والثّانية في ذراعها، ثمّ ما لبثت أن غابت عن الوعي، فأسرع النّاس بحملها إلى المشفى الميدانيّ القريب.

وأمّا أنا فقد جلست على بقايا حجارة الرّصيف، وكان الدّم يسيل ساخناً من ذراعي، ومن رأسي، فبدأت أتحسّس جسمي، والنّاس يهمّون بحملي إلى المشفى. نظرت إلى ذراعي، فلم أجد شيئاً، فأدركت أنّ الدّم هو من المرأة، والدّم في رأسي من جرح بسيط بسبب ارتطامه بشيء، فقلت: «دعوني، وأنقذوا المرأة».

هذه الحادثة أجبرت والدي على اتّخاذ قرار اللّجوء إلى لبنان، فجمعنا ما يجمع، وينقل بالسّيّارة، وكانت اللّيلة التي قرّرنا التوجّه صبيحتها إلى بعلبك في لبنان.

كانت «دوما» تعيش حالة الخدر الضّبابيّ، وكنّا ننام نوم الثّعالب، وتمرّ الدّقائق ثقيلة، وعنيفة، ولكنّها ليست بعنف الرّفسة التي أسقطت باب البيت الخشبيّ الذي سقط وسْط غرفة الاستقبال، واقتحم «الأمن» البيت، ولطم كبيرهم والدي لطمة عنيفة على صدغه ما إن قال: «شو...؟».

وقع والدي على وجه الأرض، أمّا أنا، فلم أتكلّم لسببين: الخوف، ولأنّ أحدهم شدّني من رقبتي، حتّى خرجت عيناي، وكم كانوا كرماء معنا؛ إذ تركوا والدتي، وأخي الصّغير، ولا زلت حتّى الآن أتعجّب!.

ـ: «شلاح أواعيك يا كلب!»، وجّه الضّابط كلامه إليّ.

ـ: «حاضر سيّدي».

وقال لوالدي: «شلاح إنت كمان ولك».

قلت، بصوت أقرب إلى التّمتمة، والدّعاء المنكسر: «سيدي، الله يخلّيك، بشلح أنا بس أبي . . .الله يخلّيك. . .».

ـ: «كول. . . شلاح ولك حيوان».

ولا أعلم كيف لمع في ذهني محمود درويش، وكأنّه شهاب ثاقب: «ما لك لا تفهمني إلّا من قدمي؟؟»، إلّا أنّ سجّاني أنا لا يفهمني إلّا من عورتي! تفوّق سجّاني على سجّانك يا محمود!.

ما كان من مجال للنّقاش، تعرّيت من ثيابي، وتعرّى والدي، وحاولت خلع عينيّ عن الرّؤية، ورمانا السّجّان بقدمه إلى عتمة الزّنزانة الضّيّقة المكتظة بالأجسام العارية.

اشمأزّت نفسي، وتساءلت: هل يحتاج العالم إلى صفعة من عورتي على جبينه ليستيقظ؟، لكنّ العالم كان قد أعمق النّوم، وأبعد في العمى، ولم يوقظ ضمير عورتي العارية أيّة عورة ضمير متستّر بالهراء.

ولكنّ العري الأبيض صار أزرق، وأسود، وأصفر في اليوم الثّاني، وسترت عوراتنا بالألوان المنبعثة من العصيّ،

والأحذية، والسّياط، والدّواليب. الحمد لله؛ سُترت عورة والدي عن رؤية عينيّ الملوّنتين.

ـ: «بدكِن حرّيية يا كلاب؟».

ـ: «ما كنتو عايشين يا بهاييم؟».

ـ: «بدنا نعمل، ونسوّي بنسوانكن!».

ـ: «وين ربّكن يا حيوانات؟؟».

كنت أسمع هذه الأصوات، ولكنّني لم أكن أفهم منها شيئاً. كانت هذه الأصوات لمخلوقات أخرى.

ومضت سنوات كثيرة في الاعتقال، وأفرجوا عنّا بعد شهرين؛ منّة من الله، أو ربّما لأنّنا أبرياء، علماً أنّ هذه البراءة ليست سبباً كافياً!، والأغرب من ذلك أنّ البريء منّا يشعر بالدّونيّة. أفرجوا عنّا ـ أنا ووالدي ـ ربّما؛ لأنّنا كنّا حيوانات مطيعة أليفة، أو لا أدري...

ونحن الآن في لبنان، ومع ذلك لا أشعر بالأمان، وأنا الآن أرتدي ثيابي، ولكنّني لا زلت عارياً، ولا زالت عورتي تصفع ضمير العالم، ولكنّها كانت صفعات بلا صوت... ولا صدى.

بعلبك:
٢٩ ـ ٤ ـ ٢٠١٣م

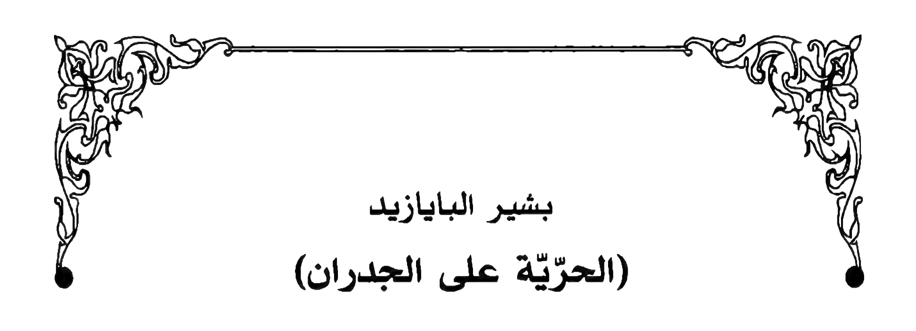


بشير البايازيد

(الحرّيّة على الجدران)




Syria



بشير البايازيد
(الحرّيّة على الجدران)

في ذلك الأصيل السّاكن من آذار كانت درعا تلوك صمتها، وتشعر بالخدر الورديّ اللّذيذ ينصبّ من الشّمس النّاعسة على الجدران في الطّرقات الخالية.

الهدوء يلفّ درعا كورقة تغليف الهدايا. ساعتها لم يكن الفتيان قد خرجوا إلى اللّعب بعد.

وهناك في حيّ الزّاهرة كان الأهالي يقيلون فترة الظّهيرة، ولكنّ بعض الفتيان تركوا هذه العادة. تركوها بتاريخ واحد البوعزيزي من شهر تونس الثّالث من العام الأخضر النّاريّ. من هذا التّاريخ صار شغفهم الحلم، ولكن من دون نوم، وإذا أردوا اللّعب خاضوا لعبة الرّسم، والنّار.

في مثل هذا اليوم من عام كانوا يقيلون، ولكنّهم اليوم اشتمّوا شذى تونس الذي انطلق عبقه في ميدان التّحرير، فشاركوا بالاعتصام في ليلة من اللّيالي النّاريّة، وها هم الآن في ليبيا يشاهدون فرعون مسجّى جثّة زرقاء، ثمّ صاروا جزءاً من ملايين اليمن، ويرحل العبد بشيء من الفوضى.

وسقط الطّغاة كأوراق شجر الشّتاء؛ فهلّل الشّباب، ورقص الفتيان.

ـ: «من بدأ الثّورة؟»، سأل بشير البايازيد الشّاب الكرديّ ذو الخمسة عشر ربيعاً شاميّاً.

ـ: «نحن. . . . الشباب»، أجاب معتصم، وصلاح الدّين، ووافق زيد، وشيركوه.

ذهبت حدّة الشّمس، فخرج بشير، ورفاقه إلى اللّعب، ولكنّ اللّعبة اليوم كانت مختلفة. اللّعبة اليوم لعبة لطيفة تعتمد على قراءة خريطة الطّرقات، وتجهيز جملة من أجل مسابقة أجمل جملة، ثمّ تسجيلها على الجدار بعد حلول الظّلام، لكي تصير الكلمات شموساً أخرى تفاجئ النّاس صباح اليوم التّالي.

خرج الرّفاق في ساعة محدّدة، ومعهم الكرة، ورسموا على جدارين متقابلين مرميين، ليكونا هدفاً للكلمات القادمة تحت جناح اللّيل الأسود.

انقسموا فريقين، ولعبوا الكرة، وانتهت اللّعبة بخسارة بشير.

ـ: «سأربح عليكم غداً صباحاً، وسترون»، قال بشير.

ونزل الظّلام أستاراً داكنة على جدران انبثقت لها أفواه بعد أن انسحب النّهار، وانتصر اللّيل، والفراغ. ونام الفتيان على أسرّة الأمل؛ كلّ واحد يطمع بالفوز غداً.

وانبلج فجر جديد مختلف، وإذا بالكلمات تفتح صدر تربتها لتستقبل ماء الضّوء، فتنبت الكلمات دهشة في عيون المارّة الذين يتسارعون بترك الحارة، والعودة إلى بيوتهم، والعزوف عن الذّهاب إلى العمل.

رأى النّاس في كلّ مرمى جملتين:

- «الشّباب... يريد تغيير النّظام».

- «والزّمن بيدور بيدور... وجايي الدّور ع الدّكتور».

- «من تونس ع الميدان... ع سوريّا وع لبنان».

- «يا سوريّا لا تخافي... بشّار بعد القذّافي».

انتصبت كلّ جملة مارداً جبّاراً يتحدّى القامات القصيرة، وتحاورت الحروف، وتجاورت، وضجّت، وتناقشت، وتعالت أصواتها، فاستمع النّاس، ولم يجرؤوا أن يقفوا. نظروا بلمحة خاطفة، نظروا، وما صدّقوا، خافوا، خافوا حتّى أن يمحوها؛ فمن محاها لا بدّ أنّه يعرف من المجرم الذي اقترفها، ومن الذي أنطق صمت الجدران.

خرج النّاس من بيوتهم، نظروا، رأوا، خافوا، عادوا، أعادوا أولادهم إلى البيوت، أوصدوا الأبواب، وتساءلوا ماذا سيحدث. حدث هذا قبل أن يخرج بشير، ورفاقه للحكم على الجمل أيّتها أجمل.

ومرّت ساعات من الصّمت، وخلت الحارة من المارّة، حتّى السّيّارات راحت تتجنّب المرور في حيّ الزّاهرة، وأقفرت الطّرقات، وأغلقت المحالّ، وتصحّر الرّصيف، ونبتت الأشواك في كلّ مكان، ونعبت بعض الغربان، وساد جوّ الموت، ثمّ حدث ما كان متوقّعاً، حدث ولكن لم يره أحد؛ وصلت سيّارة المخفر، ترجّل الضّابط، وانتشرت مجموعة جنود. نظر الضّابط، رفع حاجبه، لم يصدّق، أنا أحلم، تحسّس الجدار، تلمّس الكلمات، رفع حاجبيه، لوى رقبته، دلق شفته، حرّك يديه؛ من من الأموات خرج، وكتب على الجدران؟!؟.

استجمع نفسه، اشرأبّت عنقه، نفخ صدره، لمعت عيناه، وصرخ: «جيبولي العرصة إبن العرصة، هلّق بدّي هالإبن العرصة... جيبولي ياهن كلّهن».

وما هي إلّا ساعة، حتّى انتُزع فتيان الحارة من بيوتهم، وضُربوا جميعاً، وركلوا، وأهينوا، وأهين آباؤهم، وأجدادهم، وقرآنهم، ودينهم، ومساجدهم، وحقّق معهم، واعترَف من اعترف، وانتهى التّحقيق بالنّتائج النّهائيّة الحاسمة.

- بشير، وصلاح الدّين، ومعتصم، وشيركوه، وزيد، هؤلاء هم المجرمون.

وقف الفتيان أمام الضّابط؛ آمر المخفر واجمين خائفين. سألهم، فأجابوا: «كانت لعبة».

ـ: «حنشوف يا عرصات. زتّ ها الكلاب جُوّا».

فتح بشير عينيه المزرقّتين في قبو يحفظ فيه العفن. شمّ رائحة مجموعة من الجيف مجهولة الأنواع. لماذا حدث هذا؟ كنّا نلعب! راح يستمع إلى أنّات شيركوه، وزيد، ومعتصم، وصلاح، وما إن استراح الفتيان في الزّريبة، حتّى استدعاهم آمر المخفر، للتّحقيق من جديد. وكان بشير من نصيب آمر المخفر.

ـ: «حكيلي مرّة تانيي، يا عرصة».

ـ: «حبّينا نلعب، سيّدي».

ـ: «إنت شو كتبت، يا حقير؟».

ـ: «سيّدي... الزّمن بيدور...».

ـ: «قلتلّي لعبة...؟ لعبة، يا حيوان!! قدّيش عمرك؟».

ـ: «خمسة عشر سنة، سيّدي».

ـ: «مين قلّك تكتب على الحيط؟ مين وراك ولكْ قرد؟».

ـ: «ما حدا، سيّدي».

ـ: «ما حدا؟؟! بدّك تقرّ متل الكلب ولكْ حيوان».

ـ: «والله، ما حدا، سيّدي».

ـ: «كول خرا... كول خرا... ولّك. لا تقول: الله!...

إنت صهيوني عميل. إنت إمبريالي. إنت سلفي إرهابي وهّابي».

أبلس بشير لسماع هذا السّيل من الكلمات الأخيرة. لم يفهم منها شيئاً سوى الغضب الأحمر، الذي خرج من عينيّ آمر المخفر الذي زأر: «خدووه... ربّولي هالكلب ابن الكلب».

أُخرج بشير من الغرفة ليجد رفاقه يُقتادون بالرّكل، واللّطم، والسّباب كقطيع من الحمير، وألقي بشير وسْطهم، وراح يناله ما ينالهم.

كُبكبَ الرّفاق في غرفة التّعذيب. حتّى هذه اللحظة كان الأمر يبدو كابوساً، ولكن، كيف يكون كابوساً جماعيّاً؟!.

أُجلس بشير على كرسيّ مزروع بالمسامير، وأمامه طاولة حديديّة، وقام أحدهم بوضع يدي بشير على الطّاولة الباردة، وأوثقهما بشكل عنيف.

سأله: «عم تلعب ولك حيوان؟! شو كتبت ع الحيط ولك حقير؟».

سؤال كان جوابه لطمة على وجه بشير تبعتها الدّماء من الأنف، والفم.

ـ: «بتعرف شو هاي، ولك قرد؟»، مشيراً إلى كمّاشة صدئة.

أجاب السّائل: «هَيْ كمّاشي. بتعرف شو بتسوي؟».

وأجاب السّائل بحركة بطيئة؛ أمسك بالكمّاشة إظفر الإبهام من اليد اليمنى، وبشير ينظر بعيني غزال جريح ملقى أسفل شجرة، وأمامه وحش أسطوريّ عنيف. نظر بشير، واغرورقت عيناه بما جعل الرّؤية تتموّج، ثمّ تسقط دمعة في غرفة مظلمة. في هذه اللّحظة، كان بشير يظنّ أنّه سيستيقظ في أيّة لحظة.

أحسّ بشير بطعم الحديد الصّدئ في حلقه، وفجأة صرخ المجرم، فصرخ بشير. صرخ المجرم صرخة الحيوان عندما يتلمّظ دم فريسته، وصرخ بشير لانتزاع ظفره بحركةِ شدّ عنيفة؛ فطار الدّم بعنف على الجدار، ثمّ سال على الطّاولة الحديديّة، وهكذا...

وهكذا كلّ الأظافر، وكلّ الرّفاق، وبعدها أُعيد إلقاء أجسام الفتيان في الغرفة المظلمة كتلاً من الوجع، والدّماء.

حدث هذا في ثلاثة آلاف سنة، تقدّر بثلاثة أرباع السّاعة.

ثلاثة أرباع السّاعة كانت كافية، وزيادة؛ ليجمع آباء الفتيان بعضهم، ويحضروا معهم بعض الوجهاء. طلبوا الإذن للدّخول على آمر المخفر. سُمح لهم. دخلوا. جلسوا ينتظرون. كان بعضهم يظنّ أنّه يسمع أصوات استغاثة،

وصرخات ألم مبحوحة، ولكن، ما الغريب؟ فهو مخفر، وهو معدّ لهذه المهمّة، ولم يخطر ببالهم أنّ المعذّب هو مجموعة فتيان كتبوا على الجدران بضع جمل فيها رائحة الحرّيّة.

ـ: «أهلا، تفضّلوا. شاي، ولّلا قهوي؟»، قال آمر المخفر.

تكلّم المختار: «الله يكرمك، سيدنا، مابتقصّر. بس الشّباب مشغول بالهم ع لولاد».

قال آمر المخفر باستغراب: «أيّ ولاد؟!».

ـ: «الولاد اللي كتبوا ع الحيطان كلام بلا طعمي، يا سيّدي».

ـ: «م ـ مّ... لولاد (بتمطيط، ومدّ الألف بصوت مزعج) إي، لولاد هودي... إنسوهم».

ـ: «كيف يعني ننساهم، يا سيّدي؟»، قال أبو بشير.

ـ: «تنسوهم؛ يعني... تنسوهم»، وجلجل المخفر بضحكة آمره.

قال المختار برجاء: «الله يكرمك، يا سيدي».

ـ: «إنسوهم... جيبوا غيرهم... خلّفوا غيرهم».

صرخ أبو شيركوه: «كيف، يا سيدي؟».

ـ: «إي، خلّفوا غيرهم، وإذا ما عاد فيكم جيبوا نسوانكم لعنّا، ونحنا منجبلكم غيرهم... إنسوهم».

ـ: «سيدنا. . . !؟».

ـ: «المقابلة انتهت. . . تفضّلوا».

ـ: «يا سيدي!!».

ـ: «تفضّلوا، طلعوا، مع السّلامي».

خرج الرّجال، وهم لا يصدّقون. نظر بعضهم إلى بعض. لم يكن الأمر يحتاج إلى الكلام. كان اللّقاء في المخفر عند الأصيل، وكان الموعد بعد صلاة العشاء.

صلّى النّاس، وقرأ الإمام: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

انطلق النّاس إلى بيوتهم، وسيطر هدوء عجيب على المدينة، ولم يعد هناك أيّ صوت، وراح وشاح النّوم يستلقي على الوهاد، والتّلال، والطّرقات، والزّواريب. وخلت الشّوارع من أيّ ظلّ.

كان المخفر يغرق في بحر هذا السّكون اللّذيذ المسكر. بحر كامل من السّكون لم يعكره وجود الوجوه الغاضبة المكفهرّة حول السّاحة المحيطة بالمخفر.

وجوه عابسة تسترجع كلمات آمر المخفر التي أهان بها زوجة، أو أمّاً، أو أختاً، أو خالةً، أو عمّةً. وجوه تصرخ في

صمتها، وأيدٍ تحمل عصيّاً غليظة ظمأى تنتظر لحظة انهمار الرّيّ من السّماء.

البحر العابس، والوجوه المكفهرّة، والأيدي المتصلّبة، والعصيّ المصقولة كلّها تنتظر كلمة واحدة، ثمّ بحركة من رأس إلى اليمين، ثمّ إلى اليسار، وبرفع العصا من يدٍ عروقها نافرة، وبصرخة جبّارة هشّمت زجاج الصّمت، كلمة واحدة: «الله أكبر»؛ فصرخ الجميع بزمجرة مرعبة، بلحظة واحدة: «الله أكبر»، وهجم الرّجال.

اهتزّت السّاحة. هجم الرّجال على المخفر، على من فيه، على العناصر الذين لم يصدّقوا. أرادوا أن يتحرّكوا. لم يقدروا؛ فالصّوت شلّ حركتهم. هجم الرّجال، وعملت العصيّ في جنوب عناصر المخفر الذين أقعدتهم المفاجأة، وكان نصيب الآمر هو الأوفى، وعملت الأيدي بتكسير الزّجاج، وانطلق الآباء إلى غرف الاعتقال، ليلقوا بأكتافهم على أبوابها السّوداء المشحّمة، ليخلعوها من مكانها المهترئ، وتعجّبوا كيف انهارت هذه الأبواب الصّغيرة. كانوا يظنّونها كبيرة جدّاً، وعالية، وصلدة، ولا تُقتلع؛ فإذا بها تطير بكتف مجروحة تبحث عن قطعة قلبها.

كانت صاعقة أخرجت ببريقها الفتيان إلى الحرّيّة، وهَرب من هَرب من عناصر المخفر، وضُرب من ضُرب، واستوفى آمر

المخفر ديونه التي أقرضها للرّجال. استوفاها كاملة، وزيادة. كان الضّجيج لحظتها لا يُصدّق؛ ضجيج عنيف عظيم، ضجيج سُمع في دمشق فاضطرب المسجد الأمويّ، ضجيج أقلق حمص فانتفضت، ضجيج حرّك الغوطة فارتجفت، ووصل إلى حماه فاهتزت، وهرب الصّنم، وسقط نصُب الرّقّة، وثار طلّاب حلب، وماجت اللّاذقيّة، والزّبداني، ضجيج توجّست منه عواصم العالم، فانقسم العالم فريقين: فريق ضدّ الثّورة، والثّورة.

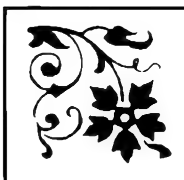
ـ: «ماذا فعلتُ؟»، سأل بشير البايازيد نفسه، ماذا فعلتُ؟ لقد كبِرتُ في لحظة واحدة سنتين. ماذا فعلتُ؟ كتبتُ جملة على جدار؟ هل خافوا أن يتذوّق الجدار طعم الحرّيّة؛ فكان ما كان؟!.

هي جملة، مجرّد جملة، جملة على جدار... «والزّمن بيدور بيدور... وجاي الدّور ع الدّكتور».

وعلى فكرة... كانت جملتي هي الأجمل! أنا الذي ربحت!.

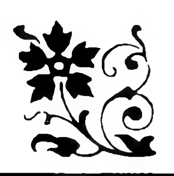
الأحد:
٢ ـ ٦ ـ ٢٠١٣م



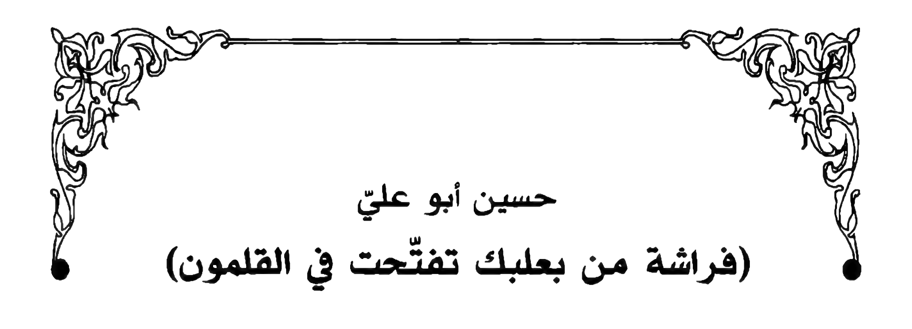


حسين أبو عليّ

(فراشة من بعلبك تفتّحت في القلمون)







حسين أبو عليّ
(فراشة من بعلبك تفتّحت في القلمون)

يمشي في بساتين بعلبك مزهوّاً بعينيه الخضراوين، وشعره الأشقر، وجسمه اللّطيف، وعطره الأخّاذ، ونظراته السّاهمة الباحثة عن الجمال. يمشي متبختراً بعمره الطّريّ، وشبابه الفوّار بالتّوق إلى إشباع الجوع، يلبَس أحسن الثّياب، ويخرج للتّنزّه، يقطف وردة جوريّة، يشمّها، يشعر بالنّشوة، يشمّها ثانية بكلّ الشّغف إلى اكتشاف المجهول.

ينظر إلى نفسه في مِشيته، وهيئته، وعطره. منظر يذكّره بعمر بن عبد العزيز. كلّ هذا الفخر، كلّ هذا الجمال، ولكنّه لم يكن سعيداً.

مات والده، وهو لا يزال غصناً نديّاً، لم تتفتّح أزهاره بعد، فوجد نفسه معيلاً لأسرته؛ عاملاً في تنّور، والتّعلّم تحوّل إلى حسرة سقيمة بالأرق الدّائم. أحبّ فتاة، فخُطبت لغيره، والمؤلم أنّه كان دائماً ما يراها، ومع هذا كلّه كان يشعر بالرّضا.

حسين في الثّانية والعشرين؛ زمن الملذّات، والنّزهات،

و«رأس العين»، وطريق البساتين، والعطر، والورد الجوريّ، والرّفقة التي ليست دائماً جيّدة، والرّسائل الملوّنة المعطّرة، وقلعة بعلبك الأسطوريّة، وكسر الحواجز، وفضّ المجهول، والتحدّي القرمزيّ، والانطلاق، والسّفر إلى آخر المحطّات.

ـ: «خفّف، يا حسين!».

ـ: «بدّي أعرف شو في خلف الجدار، ورا المجهول».

وفي اليوم التّالي، في زمن الصّحوة، كان يأتي إلى المسجد؛ يصلّي، ويبكي، وتذبل نظراته، وتذوي فورته، ويجلس يرتاح يسند ظهره إلى الجدار، يبقى وحيداً في المسجد؛ يقرأ القرآن، ويبكي، ينام في المسجد، يطلق لحيته، يرافق الشّيخ إلى بيته، يحمل له الأغراض، يصير رجلاً في الأربعين، يرى رفاق العشرين، فلا يعرفهم؛ وجوههم متغيّرة، مسودة، ورائحة أفواههم ليست طيّبة؛ فهم لا يتسوّكون مثله، ولا يتوضأون، يسمع الموعظة في جامع الإمام البخاريّ في بعلبك؛ يسمعها بتركيز: «كان هناك رجل قتل تسعاً وتسعين نفساً، وكان يبحث عن التّوبة، فسأل عن عابد، فدلّوه، فذهب الرّجل إلى العابد، فسأله: قتلتُ تسعاً وتسعين نفساً، هل لي من توبة؟ فقال العابد: ويلك، قاتلك الله!! قتلتَ تسعاً وتسعين نفساً، وجئت تسأل عن التّوبة؟!؛ فقال الرّجل: هذا جوابك؟، فقال العابد: نعم، فقال الرّجل: في رقبتي تسع وتسعون نفساً

قتلتهم، لا بأس إذا صاروا مئة؛ فلا فرق. فقتل الرّجلُ العابدَ، وأكملهم مئة، ثمّ راح يسأل عن عالم، فدلّه النّاس على واحد، فذهب إليه، فسأله: أنا في رقبتي مئة نفس قتلتهم، فهل لي من توبة؟ فقال العالم: نعم، ومن يستطيع أن يغلق عنك باب التوبة. نعم، لك توبة، ويقبلها الله، إن شاء الله، ولكن، يا بنيّ، أنصحك بأن تخرج من بلدتك التي أنت فيها إلى بلدة أخرى، وابدأ حياة جديدة، وفعلاً جمع الرّجل أمره، وانطلق إلى البلدة الأخرى؛ بلدة التّوبة، وفي طريقه جاءه من لا يستأذن؛ جاءه الموت، فمات، فجاءت ملائكة العذاب تريد أن تأخذ قاتل المئة نفس، ونزلت ملائكة الرّحمة تريد أن تأخذ الرّجل التّائب التّوبة النّصوح، واختلفت الملائكة أيّهم يأخذه، ثمّ خلصوا إلى حلّ: فلْنحتكمْ إلى أوّل قادم، فأرسل الله تبارك وتعالى ملكاً، فحكّموه بينهم، فقال: قيسوا الأرض، فإذا كان الميْت أقرب إلى الأرض التي قتل فيها المئة، فلتأخذه ملائكة العذاب، وإذا كان أقرب إلى أرض التّوبة، فلتأخذه ملائكة الرّحمة.

وفعلاً قاموا بقياس المسافة، فكانت النّتيجة أن كان الرّجل الميْت أقرب إلى أرض التّوبة النّصوح؛ فإنّ الله تبارك وتعالى طوى الأرض إلى بلدة التّوبة، فصار أقرب إليها، فأخذته ملائكة الرّحمة؛ فالله ﷻ قبل توبته».

سمع حسينٌ الموعظة باهتمام، وتخيّلَ، وفهمَ، وبكى، وبكى، ولكنّه لم يكن حزيناً.

في بعلبك كان يشعر بأنّه يتردّد بين عمْر العشرين، وعمْر الأربعين. سمع الموعظة، فأحسّ أنّه وجد بلدة التّوبة التي في القصّة. بلدة التّوبة كانت ثورة بلاد الشّام.

كان حسين قد تعب من عمْرِ العشرين، وبدون أيّة مقدّمات، لم يستأذن المئة نفس، لم يخبر أمّه، ولم يخبر الأحياء في بعلبك، ولم يقدّم استقالته من العمل، لم يسأل الشّيخ؛ فالشّيخ قد أجابه: امض إلى أرضٍ جديدة؛ أرضٍ طاهرة، أرضٍ أنت فيها إنسان جديد. لم يرتّب حقيبة السّفر، لم يكوِ ثيابه. باع بعض الأغراض. جمع بعض المال. لم يودّع أحداً؛ فالطّريق لا تنتظر، وهناك خلف الحدود المصطنعة من ينتظره. لم يرسل رسالة إلى حبيبته؛ أظنّها ماتت، وانطلق حسين إلى سوريا.

اختفى عمر بن عبد العزيز من نزهات بساتين بعلبك، وتلاشى شذى العطر من الأجواء، ووصل محلّها بعض الأخبار التي تقال همساً في خبايا بيوت بعلبك؛ يحكى عن صلاح الدّين يتدرّب في سوريا، ومرّة يقال أنّ الشّيخ عبد الله اليونيني؛ أسد بلاد الشّام يرعب الأعداء، يتهامس النّاس: «أبو علي اللّبناني ذهب، أبو علي اللّبناني فعل...»

تهامس أخصّ رفاقه: «التحق حسين بمجموعة مقاتلة شرسة، ولكنهم كانوا بعمر العشرين، فتركهم، ثمّ التحق بمجموعة يحافظون على دينهم، ولكنّهم ضعفاء، فتركهم، وأخيراً استقرّ مع مجموعة في العشرين شراسة، وفي الأربعين ديانة: لواء أنصار الحقّ أنصار الله، وبدأ العمل».

كان لهذه الأخبار عبق المسك الذي يعبق في الأرجاء والأنحاء. اختفى حسين من بعلبك، وظهر أبو علي اللّبنانيّ في القلمون، ومرّة جاء الخبر بشكل فيديو: أبو علي اللّبناني بلحية طويلة شقراء كثّة، وهو مصاب في رجله، مصاب، ووجهه مشرق وسعيد، تراه وكأنّه في فترة نقاهة، تراه شابّاً في الأربعين. راح الفيديو يسري في بعلبك سريان نسيم الصّبح فوق صحارى ظمأى لخبر عن المطر الذي انقطع منذ زمن بعيد؛ وكان النّاس في بعلبك بحاجة إلى صلاة استسقاء، كان الإمام هذه المرّة اسمه أبو علي اللّبنانيّ.

ومرّة جاء فيديو آخر تظهر فيه مجموعة شباب تنادي: «الله أكبر، تدمير حاجز الفخوخ: حاجز المزابل»، وشابّ يصرخ: «لواء أنصار الحقّ أنصار الله. الله أكبر، هؤلاء المجاهدون الأبطال، الشّهادة أو إعلاء كلمة لا إله إلّا الله. المجاهد البطل أبو علي الذي دمّر الدّبابة»، ويظهر حسين بعصبة سوداء على رأسه، يحمل قاذفاً مضادّاً للدّروع، ويتلو قول الله تعالى: ﴿وَمَا

رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾. تلا الآية، وأغضى ببصره، واختفى إلى يمين الصّورة، لتظهر الدّبابة التي أصابها، وقد اندلعت فيها النّيران، وفي هذه اللّحظة انهمر المطر في بعلبك.

انتصرت مجموعة حسين أبو علي على من كان في الحاجز؛ دمّروا آلياته. وأخذوا هذا الحاجز بما فيه. ليلتها جلس حسين مع «أبو يحيى» يتسامران. كانت ليلة هادئة من ليالي «رنكوس» المقمرة.

يقول حسين: «بيضحّكني اسم الحاجز، ليش إسمو حاجز المزابل؟».

فيجيب أبو يحيى: «بالعكس إسم على مسمّى».

ـ: «شو بدّك يسمّو الحاجز وهنّي فيه؟».

ـ: «بيخطر ببالي إنّا نضّفناه».

ـ: «صار متل التّلجة». وضحكا جميعاً. ضحكا طويلاً.

ومضت ليالٍ، كان أبو علي يفكّر خلالها كيف تتحرّر الفراشة من ماضيها، وكيف تدخل في حاضرها الملوّن الزّاهي. كانت ذكرياته في بعلبك تؤرّقه؛ يوم كان يتعدّى الجدار، ولا يأبه، ويتذكّر كيف تأتي الصّحوة، فيحلو له البكاء، ويتساءل.

وتمضي اللّيالي، وهو في سعادة وحيرة؛ يتساءل، ولكنّه في هذه اللّيلة يشعر بالضّيق.

ـ: «حاسس صدري ضيّق، والدّنيي ضيّقة».

ـ: «شو باك. شو حاسِس؟».

ـ: «حاسس الدّنيي صغيرة كتير وضيّقة، ونفَسي ضيّق».

ـ: «يمكن لأنّو في أخبار عن هجوم العساكر... بدُّن يرجعوا ياخدوا الحاجز».

ـ: «يمكن...! بس الشّباب فيهُن البركة... رح يبقى نضيف، ولا يهمّك».

في هذه اللّيلة المقمرة ذات النّسمات لم يستطع حسين أن ينام. بقي مستيقظاً. قرأ قليلاً من القرآن. تذكّر دروس الشّيخ «أبو إبراهيم»، تذكّر رفيقه «أبو سعيد القلمونيّ» الذي استشهد يوم سقط عليهما الصّاروخ؛ استشهد أبو سعيد، وبقيتُ حيّاً. تحرّك حسين قبيل صلاة الفجر، وذهب إلى قبر أبي سعيد وقف، وأطال الوقوف. قرأ الفاتحة، ودمعت عيناه، وعاد إلى الصّلاة. جاء صديقه، التقى بحبيبه.

ـ: «أبو يحيى، إذا متّ وصيتي تدفنّي حدّ أبو سعيد».

ـ: «مو أحسن لك تندفن ببعلبك؟». قال أبو يحيى ذلك ممازحاً.

فابتسم حسين: «لأ، مش أحسن، هون أحسن؛ هون بأرض التّوبة».

ابتسم أبو يحيى رغم أنّه لم يفهم ماذا قصد حسين من جملته الأخيرة.

عاد أبو علي يهدس بالأفكار؛ تذكّر عندما قال له من بعلبك علي مصلح: «ما بدّك تروح تشوف أمّك؟»؛ فقال له: «أقول أمّتي، وتقول أمّي؟! القضيّة قضيّة أمّة!».

لماذا لا ينتهي هذا الظّلام؟ قرأ الإمام في صلاة الفجر: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ...﴾. السّلام عليكم ورحمة الله، السّلام عليكم ورحمة الله.

انتهت الصّلاة، وعاد حسين إلى التّفكير: أين العالم ممّا يحدث هنا؟ رأينا فظائع لا يصدّقها عقل! والمسلمون، والعلماء، ومدّعو حقوق الإنسان، أين هؤلاء؟.

شقّ النّور أستار الظّلام على هذه التّلّة، وعبقت رائحة القهوة.

ـ: «يا الله»، ردّ حسين على دعوة «أبو يحيى». اقترب. جلس، ولم يتكلّم. تناول فنجانه. رشفه. قال أبو يحيى: «عنّا ضيوف: قطيع النّظام بدّو يستردّ الحاجز، ما عجبتو النّضافة». قال أبو يحيى هذه الجملة على أمل أن يبتسم أبو علي الذي جاراه بالمزاح دون أن تفترّ شفتاه عن أيّة بسمة: «هِنّي معوّدين على الوساخة».

ـ: «نحنا رايحين نجهّز حالنا، ونستعدّ، أكيد عنّا معركة اليوم».

ـ: «يا الله... ماشي معكم».

ـ: «لأ، إنت دورك مع المؤازرة إذا احتجنا لك؛ جهّز حالك، وهيّئ القاذف».

انطلق الشّباب. تحصّنوا. استعدّوا، وبقي حسين يشرب قهوته بعد أن جهّز سلاحه، وراح يرتشف فنجانه، وينظر إلى جهاز اللّاسلكي، ويتفكّر: بعلبك مدينة المئة مجرم. صحيح أنّني قتلتهم جميعاً، لكنّهم كانوا هم المجرمين، وأنا كنت عدداً من أولئك المئة... قتلت نفسي أكثر من ثلاثين مرّة... كيف أمحو ما كتبت هناك، وكلّ ما كتبته مزروع في وجهي؟. أليس ماضينا كلّه في وجوهنا؟.

لم يستيقظ حسين من هذه الأفكار إلّا على صوت الرّصاص، وهو يمزّق الصّخور، وصوت الدّبابات يهدر كالرّعد. وضع يده على القاذف. أمسك اللّاسلكي. المعركة على بعد كيلومترين. هل أنطلقُ؟ أنطلقُ...؟ لا، سألتزم بالخطّة؛ لن أتحرّك حتّى...

ـ: «أبو علي... أبو علي... حوّل».

ـ: «يا الله... حوّل، حوّل».

ـ: «يا الله... مهمّتك الدّبابة اللي ع اليسار، على التّلّة... النّقطة أربعين... حوّل».

ـ: «عُلم... حوّل».

هبّ حسين أبو علي اللّبناني. كانت المؤازرة هي «حسين» وحده، فتساءل، وهو يركض: هل أنا عبد الله بن الزّبير الذي حكى لنا عنه الشّيخ، وكان الخليفة أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه، يرسله مدداً للجيش، وكان يقدّر بألف رجل؟ أو هل أنا القعقاع بن عمرو، فلا يهزم جيشٌ فيه القعقاع؟.

وصل القعقاع، وقد قصّرت أفكارُه، وتخيّلاتُه، وإحداثياتُ المعركة الطّريقَ إلى الحاجز المحاصَر من قبل جنود ليسوا سوريّين؛ وجوههم عريضة، أشبه بوجوه البقر الرّوسي، تفور عيونهم المليئة بحقد عبّاد النّار.

تمركز حسين في نقطته المحدّدة. قدّر في ذهنه المسافة، والحركة، والهيئة. تمّ كلّ ذلك بلحظة سريعة. تهيّأ. سمّى الله: «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم». صوّب سلاحه باتّجاه الدّبابة التي كانت تتحرّك فوّهة مدفعها باتّجاه حسين قبل أن يتمركز؛ كأن للدّبابة عينين؛ كعيني الثّعلب ترصّدانه. تهيّأ للإطلاق. نظر إلى الدّبابة، فالتقت عيناه بعيني المدفع، وسمع حسينٌ صوتاً عظيماً للحظة، ثمّ ساد الصّمت طويلاً. لم يعرف حسين، من شدّة

الصّوت، هل كان ذلك الصّوت هو صوت القاذف، أو صوت قذيفة الدّبابة؟.

أحسّ أبو علي أنّه محمول، وجسمه يهتزّ. نظر إلى جنبيه، فرأى جناحين ملوّنين قد نبتا من تحت جلده؛ هل تحوّلت إلى فراشة؟ أحسّ كأنّه يطير؛ كأنّه انطلق فوق هذه الأرض الطّيّبة يستمتع بالمناظر من الأعلى، ولكن كيف أرى، وأنا مغمض العينين؟!.

لا زال الصّوت المدوّي يضجّ في أذنيّ، ومع ذلك هناك أصوات أخرى لا أفهمها. ماذا يقولون؟.

ـ: «هل سيعيش؟».

ـ: «صعب».

ـ: «كانت الدّبابة قد حدّدت مكانه بالجهاز الحراريّ، فأطلقت قذيفتها قبل أن يفعل أيّ شيء».

ـ: «انفجرت القذيفة أمامه مباشرة، أمام وجهه».

ـ: «تقبّله الله شهيداً إن شاء الله».

ـ: «جاء من بعلبك يدافع عن كرامتنا، وعن أهلنا».

ـ: «جاء منّا، وإلينا، نحن أمّة واحدة».

ـ: «رحمك الله، يا بو علي».

تساءل حسين: «ومن هؤلاء؟ ومن هذا الرّجل الميت؟

من هؤلاء الذين جاؤوا يأخذونه؟ لقد حملوه، ومضوا، مضوا نحو الشّرق. هذه المرّة لم يكونوا فريقين، ولم يختلفوا من يأخذه، ولم يقيسوا الأرض؛ فالرّجل استشهد في قلب الأرض التي لا تحتاج إلى قياس.

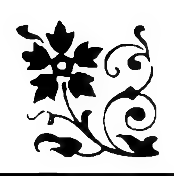
الاثنين:
١٧ - ٦ - ٢٠١٣م



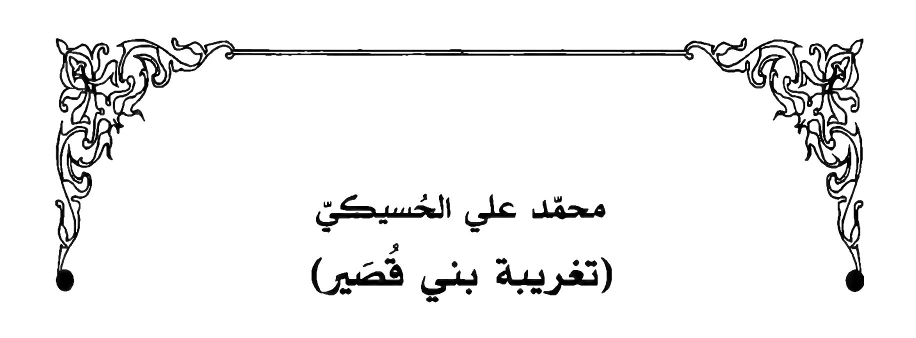


محمّد علي الحُسيكيّ

(تغريبة بني قُصَير)







محمّد علي الحُسيكيّ

(تغريبة بني قُصَير)

في مكان ما، مكان بين القُصير السّوريّة وعرسال اللّبنانيّة، في هذا المكان المغطّى بكلّ الظّلام والظّلم الذي في الأرض، مكان يقع خارج حدود الإنسانيّة، هو مكان خارج المكان؛ إذ لا حدود له سوى الأصوات التي تهمهمُ في أوّل القافلة، أو الأنّات المتوجّعة في آخرها.

في هذا المكان كنت أتوقّع، وإن كان الظّلام الكثيف هو الحاكم المطلق، كنت أتوقّع أن أرى حدود سايكس بيكو تشعّ تحت جنح العتمة، ولكنّني لم أتبينها. في هذا المكان المليء بالصّخور الحمراء، كنت أشعر بها، ولا أراها، حمراء. هنا أخذت قراراً؛ إذا بقيت حيّاً، وسمحت لي ساقي، قرّرت أن أكتب قصّة بعنوان: تغريبة بني قُصير.

أخذت القرار مع أنّني لست كاتباً جيّداً، أنا أستاذ تاريخ، أدرّس الأحداث التّاريخيّة، لكنّني صرت الآن أنا الحدث، أنا التّاريخ الذي سأُدرَّسُ بعد سنوات قليلة، ولا أدري، ربّما أقرأ عن نفسي، ربّما إذا سمحت لي ساقي.

أنا محمّد عليّ، طبعاً لي كنية، لكنّني لن أكتبها؛ فأنا أخاف على نفسي في لبنان أكثر من خوفي عليها في سوريا. أنا لم أفعل شيئاً مخالفاً للقوانين، والأعراف. أنا مدرّس مادّة التّاريخ، وأعرف ماذا خلف التّاريخ المكتوب في الكتب.

أخذت القرار في هذا المكان؛ سأكتب قصّة عنوانها: تغريبة بني قُصير، تماماً مثل تغريبة بني هلال، أو تغريبة بني فلسطين. سأكتب قصّتي، وسأبدأ من حصار القُصير... لا، سأبدأ من تدريسي التّاريخ في ابتدائيّة القصير حيث بدأت التّعليم فور حصولي على الإجازة. كنت أحلم بتغيير بعض الصّفحات السّوداء في الكتاب؛ فجاءني الإنذار الأوّل، فتغابيت، فجاءني الإنذار الثّاني الذي لم يمهلني، حتّى جاءني التّهديد الثّالث، وراحت الصّور تراود خيالي رغم الوجع الذي ينزّ من ساقي بشكل دمٍ وقيح، وتعلم أنّ الوجع يتحوّل أحياناً إلى شبه اليأس، أو الخدر، أو انتظار غشيان الموت.

في هذا المكان المعتم، ونحن نرتاح رغماً عنّا، نحن قافلة بني قُصير، نرتاح لأنّ الجرحى رأوا أنّ الاستمرار نحو النّجاة قد يعني الموت، ورأوا أنّ الموت بهدوء قد يكون سفينة الخلاص، فجلسنا نرتاح في هذه العتمة السّوداء العمياء.

في الظّلام يسهل على الخيالات، والأطياف، والأشباح

أن تتحرّك، فأرى الشّباب يجلسون تحت السّنديانة العتيقة يتحدّثون...

ـ: «اشتعلت الثّورة في درعا».

ـ: «لا، انطلقت من المسجد الأمويّ بدمشق».

ـ: «صحيح، بسبب التّجاوزات من الزّوار: ضجيج، ورايات، وتحدٍّ، وخنوع، وتآمر. أنا رأيتها».

ـ: «لا، لا، من درعا، فالصّبيان رسموا على الجدران، كتبوا شعارات للحرّيّة».

ـ: «يخرب بيتن... كيف عملوها؟!؟».

من هناك، أو هنالك، لا يهمّ، اشتمت القصير روح الحرّيّة. وبدأت التّحرّكات في القصير، وبدأت أصوات الشّباب ترتفع شيئاً فشيئاً.

ـ: «لسنا أقلّ من الزّبداني».

ـ: «نعم، لسنا أقلّ من أيّ مكان».

ـ: «يا جماعة، طولو بالكم؛ نحن على الحدود، وبتعرفوا هادا شو بيعني».

ـ: «بدنا نتحرّك».

وشرعت المظاهرات تنطلق خجولة في الأيّام الأولى، ثمّ راحت القصير كلّها تهتف للحرّيّة.

ما هذا العبق السّاحر لهذه الشّعارات التي راحت تملأ الفراغ في الضّيعة!! نعم، نحن ضيعة؛ لا أبنية عالية، ولا أحد منّا يعرف شيئاً عن التمذّهب، والتعصّب، والطّائفيّة.

ـ: «الله... سوريّا... حرّيّة، وبس».

لسنا أقلّ من مصر، أو تونس، أو ليبيا، أو اليمن، إلّا ليبيا، لا أحبّ أن يحدث لنا ما حدث في ليبيا؛ فالدّماء غالية. هكذا قال لي صديقي زاهد الفرّا؛ أستاذ الرّياضيّات، ولم أخالفه.

ومضت سنتان، وكانت قد اشتعلت سوريا كلّها؛ اشتعلت بالرّصاص، ثمّ بالقذائف، ثمّ بالصّواريخ، والطّائرات، ولم تنفد الأسلحة، بل كان الدّعم الرّوسيّ للحلفاء نهراً جارياً، أو بحراً، وأساطيل، وإذا تعب الرّجال كانت الدّول الصّديقة ترسل مقاتليها، وبدأت القُصير تتحوّل مع التحوّلات، وبدأنا نرى الرّشاشات، وبدأنا نسمع أصوات المعاول طوال اللّيل، وشيئاً فشيئاً بدأنا نُقصف، ويُطلق علينا الرّصاص، وتنهال على رؤوسنا القذائف، وصرنا نسمع هدير الطّائرات، وصراخ الصّواريخ، وزعيق الهاون...

كلّ هذا لم يفاجئني؛ لأنّني كنت أتابع الأخبار يوميّاً، فما حدث في الغوطة، والزّبدانيّ، وحمص، وحماه، وتلبيسة، وحلب، وغيرها جعل ما يحدث في القصير عاديّاً ضمن لوحة

الجنون، ولكن ما فاجأني هو شيء آخر: هل يمكن أن تحاصر القُصير؟ ومن سيحاصرها؟.

دخل الثّوار إلى القصير، عددهم ثلاثمئة أو يزيد قليلاً، وبدأت الأخبار، وغريب أمر هذه الأخبار التي تملأ الصّحف، وتشغل النّاس والمحطّات الفضائيّة، يقولون: المعركة الكبرى... قادسيّة العصر... إمدادات، وقوى ثوريّة، وجبهة النّصرة بالآلاف، وفعلاً حدث الحصار، ثمّ تبيّن أنّها إمدادات وهميّة إعلاميّة؛ كنّا مئات من المحاصرين الجرحى، ننتظر أمر المفاوضات.

ـ: «بدّك مي، أستاذ؟».

نظرت، فإذا بأحمد الدّاراني يحمل كوب ماء، ويبتسم ابتسامة باهتة واهنة، وقبل أن أمدّ يدي، قلت: «أمّ محمّد، ولولاد؟»، أجاب: «شربوا، مشي الحال، بس سامحني، أستاذ، لا تكتّر، حتّى يفرجها ربّك»، مددت يدي، وأخذت الكوب، و«بلّيت» ريقي، فابتسم، وقال: «مش لهالدّرجة، اشربْ بعد». نظرت إلى ساقي، وهي تخرج نصف الماء الذي شربت.

ـ: «سنرتاح بعد شوي». نظرت قربي؛ لأرى أمّ محمّد؛ زوجتي، وقد تمزّق حجابها. هذا الحجاب الذي اشترته في ٢٠٠٦م، في نفس العام الذي ضرب اليهود فيه لبنان، يومها

أذكر تماماً كيف لجأ إليّ أبو حسين العامليّ، وأذكر كيف أخليت له بيت ولدي حمزة الذي كان سيتزوّج بعد أشهر. سكن أبو حسين، وعائلته المكوّنة منه، وزوجته، وولده الكبير حسين، وابنته فاطمة، وحمزة ـ الذي سمّاه على اسم ولدي، هكذا أخبرني ـ واليوم بقي ولده حمزة، واستشهد ولدي حمزة العريس، استشهد يوم دخل المقاتلون اللّبنانيّون إلى القُصير. بقي ولده، ورحل ولدي، ولكن هل يمكن أن يكون حسين العاملي هو الذي قتل أخاه حمزة؟؟ فقد قيل لي: أنّ «حسين» كان ضمن المقاتلين اللّبنانيّين الذي حاصروا القصير، ودخلوها فاتحين! لا أعلم.

ـ: «أستاذ، لازم نمشي».

ـ: «يا الله، أمّ محمّد، جيبي لولاد، يا الله».

حملت عصاي، وقمت، وعدت لجرّ ساقي المصابة بشظيّة قذيفة، وطلبت من أمّ محمّد، والأولاد أن يمشوا أمامي لأسباب أهمّها: أن لا يروني على حالتي، وساقي تكاد تسقط، وأنا أجرّها على الأرض، فترتفع، وتهبط مع تشكّل لوحة الحجارة والصّخور.

ما كنت أريدهم أن يروا ساقي التي بدأ العفن يضربها بلونه الأخضر... بدأ الحصار، وقلّ الطعام، وفقدت الأدوية، وأطلقت القذائف، وحوصرنا، وأصابت ثلاث قذائف شقّة

حمزة، فاحترقت، عندها كنت أسمع أهازيج النّصر باللّهجة اللّبنانيّة ترتفع كلّما اشتعلت النّيران أكثر. الشّقّة تحترق. كان حمزة فيها، ويأبى أن يغادرها. كان حمزة يموت، على وقع شعارات دينيّة غريبة، لم أسمعها من قبل.

صعدت لأرى حمزة، فجاءت القذيفة الرّابعة، فأفقت وأنا بين أكوام من اللّحم، بعضها حيّ، وأكثرها ميت. كنّا في مستودع للبضائع تحت الأرض. أفقت لأرى ساقي تكاد تنقطع، وقد أُعطيت أدوية تحاول أن تسكّن، ولكنّها، قطعاً، لا تداوي.

بقينا تحت الحصار أسبوعاً، أو عشرة أيّام، وكنت أتخيّل في لحظات الحمّى أنّ «أبو حسين» يدخل عليّ، ويمسك بيدي، ويقول لي: «والله، ما رح ناكل حتّى تنزل تاكل معنا يا بو حمزة، بدنا نتغدّى سوا»؛ هذه الجملة كنت أقولها له عندما كان في ضيافتنا. وفي بعض لحظات الغيبوبة كنت أرى صينيّة الطّعام ملأى بشتّى صنوف الأدوية، والضّمادات، ولكن هل يمكن أن يخترق أبو حسين حصار ولده حسين لنا؟ وهل يقدر أن يأتي لنا بالطّعام، وبما يداوي لي ساقي التي تأخّر عليها الدّواء، فراحت تخضرّ؟.

عندما كنت في المستودع علمت بأنّ هناك وساطات لإخراجنا من أجل التّداوي، لكنّ بعض اللّبنانيّين رفضوا،

وعلمت أنّ بعض الجرحى منّا وصلوا إلى بعلبك، وقد تصدّت لهم مجموعات مسلّحة أبت دخولهم إلى المدينة للتّداوي في مشافيها، وهكذا خرجت من رام الله في ٤٨، لا أذكر في أيّ شهر؛ فكتاب التّاريخ تمزّق عندما أصابتنا قذائف جيشنا الباسل، وقذائف حسين العامليّ، وساعتها كان المذياع يتكلّم بالعبريّة، ثمّ بالعربيّة: «من يبق في رام الله غداً يموت، ارحلوا، انجوا بحياتكم، وإذا بقيتم تعرضون على محاكم التّفتيش».

ـ: «أستاذ، حرارتك مرتفعة؛ أنت تهذي؟».

ـ: «آه، صحيح!!».

أيقظني سؤاله من خيالاتي، فعادت إليّ صور الأشباح المتدثّرة بالعتمة في تغريبة بني قُصير؛ قافلة تسير بعد أن تركنا السّيارات التي تضجّ في اللّيل، فتستدعي رائحة دمائنا ذئاب اللّيل، وهنا صرخت امرأة بصوت متوحّش: «ولدي، ولدي»، وسمعنا كلّنا صوت حيوان جائع هجم على ولدها؛ فصرخت، فركض من معنا من الشّباب، وأنقذوا الولد بعد أن ناله الحيوان بعضّة مسعورة في فخذه.

قام أحد الشّباب بحمل الولد الجريح بعد أن ضمّد جرحه بجلباب أمّه الذي أخذه فشقّه نصفين، ومن يومها عُرفت أسماء بلقب ذات النّطاقين.

أذكر هذا تماماً، حدث هذا معي قبل الآن؛ يوم أُخرجت من بيتي في «الزّرقا» في ٦٧، يوم خرجت أنا، وسميح القاسم؛ هو كتب أشعاراً عن فلسطين، وأنا درّست ما حدث معي في تغريبة بني فلسطين.

وحدث هذا معي قبل الآن يوم حشرنا الجيش الصّهيوني في «الزّرقا»، وكوّمنا فوق بعض؛ الرّجال، والأطفال، والنّساء، والعجائز، كثير منّا كان مصاباً، وينزف، وقد جمعنا في مستودع تحت الأرض، فمات قربي ثلاثة، لم أدرك ذلك، حتّى شممت رائحة الموت الثّقيل. هؤلاء الثّلاثة كانوا جيراني في القُصير؛ واحد منهم كان بقّالاً، والثّاني هُجّر معي من الضّفّة، والثّالث لبناني من جبل عامل...

ـ: «أستاذ، تشرب نقطة ميّ؟ شايفك تعبان، وبتحكي كلام غريب».

ـ: «إي، شكراً، يمكن الحمّى سيطرت عليّ». نظرت إلى أمّ محمّد، والولدين، رأيتهم لا يزالون صامدين.

ـ: «لازم نوصل قبل الضوّ على عرسال»، قال دليلنا.

نعم، يجب أن نصل إلى المغرب بعد أن طُردنا من الأندلس، أو يمكن أن نصل إلى بغداد، وعندها سترون تاريخنا ما أعظمه! نحن فتحنا العالم، نحن أحفاد موسى بن نصيّر، عبد الرحمٰن الغافقيّ، وخالد، ويزيد بن أبي سفيان، وعليّ،

وسعد، يوم ذكرت هؤلاء الأبطال جاءني الإنذار الثّاني، وأنا الآن في مكان ما بين «الزّرقا»، والقُصير، وعرسال، أنا الآن في شهر ٦٧ في العام ٢٠١٣م، أمشي في تظاهرة تطالب بقليل من الإصلاحات. لماذا كلّ هذه الطّقوس؟ لماذا كلّ هذه القدسيّة، إذا مشيت في تظاهرة، وناديت للحرّيّة؟ وإذا بمجموعة مسلّحة توقف قافلتنا الهاربة من القُصير إلى عرسال بمجموعة من الطّلقات ليست كثيرة؛ توقّفنا. كانت مجموعة من المهرّبين.

ـ: «لوين؟»، قال كبيرهم.

ـ: «لعرسال»، أجاب دليلنا.

ـ: «من القُصير؟».

ـ: «نعم».

ـ: «ماشي، تركوهم (موجّهاً كلامه لرجاله) ما تاخدوا منهم شي».

قال أحدهم: «ما معهم شي غير الجرحى... روحوا يا عمّي».

قال زعيمهم: «انتبهوا من الطّريق».

وتابعنا سيرنا، إلّا أنا، فقد وقعتُ على الأرض بعد الوجع الذي ثار عليّ من ساقي.

ـ: «شو أستاذ؟».

ـ: «تْركوني، ورُوحوا».

صرختْ أمّ محمّد: «لاء، لاء، كلّنا سوا منعيش، كلّنا سوا منموت».

ـ: «ما راح نتركك»، قال الدّليل.

ـ: «طيّب، خلّوني إرتاح شوي»، وافق الجميع. جلس الجميع.

ألا أيّها اللّيل الطّويل ألا انجل بصبحٍ وما الإصباحُ فيك بأمثل

جلست على صخرة أحسّها غريبة... : «هل صرنا بالأراضي اللّبنانيّة؟».

هزّ رأسَه الدّليل بالإيجاب. لم تطل استراحتنا؛ فقد استنفرنا الدّليل: «يا الله، قوموا... ما عاد معنا وقت، ويمكن يصير شي».

تابعنا سيرنا، وتابعت عرجتي، وما إن تحرّكنا، حتّى سمعتُ صوتَ أزيز رصاصة زعقت، ثمّ استقرّت في صدر أبي سعيد المعضْماني؛ فخرّ صريعاً، وتبعتها رصاصة أخرى، لتنفجر في ظهر أمّ عبد الله معدران، لتصرخ، وتقع على الأرض تتلوّى كحيّة تحترق، أمّا أنا، فقد تسمّرت أنتظر رصاصتي، ولم يطل انتظاري، حتّى اشتعل الرّصاص بين

فريقين لا نراهما، وتعالت صرخات الموت، وامتزجت بزعيق الرّصاص والشّواظ، ووحشيّة القذائف، ورائحة بارود الموت.

استمرّ الأمر ما يزيد على نصف ساعة، كنّا خلالها نحتضن التّراب، وكنت أخيّم على زوجتي، وولديّ. كان كلّ جسدي يترقّب الرّصاصة، أو القذيفة التي ستنهش أعضائي التي أفتدي بها عائلتي. نصف ساعة تقريباً، حتّى هدأ الرّصاص، واستكانت القذائف، وسمعنا أصوات سيّارات، وصراخات جرحى، لا ندري من أين تأتي.

سكنت الأصوات، ورحل أصحابها، وصرخ دليلنا: «يا الله، بسرعة، يا الله، قوموا، قبل ما يصير شي جديد، قوموا... يا الله».

عدنا إلى السّير، وقد صار لي الآن عكّازان: عصاي، وأمّ محمّد، وأحياناً كان ولداي عمر، وزينب يساعدانني. عاد المشي، وطال الزّمن، ورأيتني من جديد في مصر في العهد العبيديّ، وقد حكموا عليّ بمحكمة التّفتيش أن تُقصّ رجلي، وأُطرد من أرض الكنانة، وأن يدمّر بيتي في «الزّرقا» من الضّفّة، فهربت، ولحقتْ بي مجموعة من قطعان المستوطنين الآتين من قشتالة، وقد حاصرونا في القُصير بلا طعام، ولا أدوية، ولا ضوء؛ فما عدت أرى شيئاً، فأغمضت عينيّ... ومتُّ.

متُّ، وأنا أرى تشقُّق الضّوء من الغرب... اصمد، أستاذ... وصلنا... هذه عرسال... غريب! أمشي، وأنا ميّت، وقد وصلت إلى عرسال!، وأنا أسمع لهجة لبنانيّة جبليّة محبّبة: «الحمد لله ع السّلامة».

....

ـ: «وعيت؟؟ حمد لله ع السّلامة». قالوا لي غبت عن الوعي عشرة أيّام.

ـ: «وين أمّ محمّد ولولاد؟».

ـ: «بخير... اطّمن، الكلّ بخير، ولكن...».

نظرت إلى ساقي... لم أجدها.

ـ: «اضطرّينا...».

ـ: «ماشي الحال، الحمد لله... الحمد لله على كلّ حال».

وجدت نفسي في بيت من بيوت عرسال؛ في بيت الأستاذ محمّد محمود الحجيريّ، أبو عليّ، الذي استأذن أمّ محمّد، ودخل ليعودني. قال: «كيفك هلّق؟ إن شاء الله أحسن؟ إنتو ضيوف عزاز حتّى يفرجا الله».

ـ: «الله يبارك فيك».

ـ: «إنت أستاذ ما هيْك؟».

ـ: «كيف عرفت؟».

ضحك أبو عليّ، وقال: «كيف عرفت!؟! إلك عشرة أيّام، وأنت تقول: محكمة التّفتيش، الضّفّة، الزّرقا، فلسطين، القصير، الأندلس، مصر، المستودع، فمنّا الوليد، ومنّا الرّشيد، وتقول: العبيديّين، مين هَوْدِي؟».

ابتسمتُ ابتسامة صفراء، وقلت: «هيدي قصّة طويلة... صحيح، أنا مدرّس تاريخ».

قال أبو عليّ: «جبتلّك وراق على الطّاولة هَوْنيك».

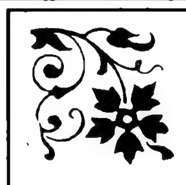
سألتُ باستغراب: «لشو؟».

ـ: «لشو؟!! لتكتب قصّة تغريبة بني فلسطين، أو تغريبة بني قصير، هَيك كنت عم تحكي بالغيبوبة».

ثمّ مضى أبو عليّ الحجيريّ، وتركني مع العائلة. تركني أمام الطّاولة بساقي الوحيدة، وعرجتي الدّائمة، والأوراق. جلست إلى الطّاولة، تناولت قلماً، وكتبت بأعلى الصفحة: تغريبة بني قُصير، وشرعت بالكتابة: في مكانٍ ما، مكانٍ بين القُصير السوريّة، وعرسال اللبنانيّة...

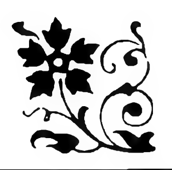
الأحد: ٥ رمضان ١٤٣٤هـ
١٤ ـ ٧ ـ ٢٠١٣م



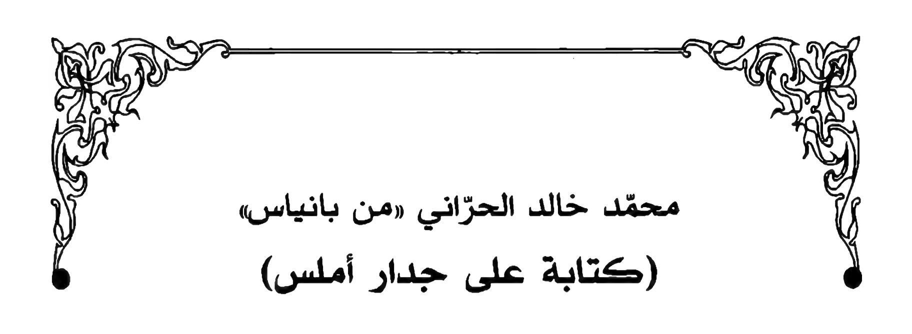


محمّد خالد الحرّاني «من بانياس»

(كتابة على جدار أملس)







محمّد خالد الحرّاني «من بانياس»

(كتابة على جدار أملس)

كان الظّلام قد احتلّ المكان المجهول قبلي، فوجدت نفسي سجيناً في سجن بارد. أحسست بذلك. شعرت بثقل البرودة تضغط على شراييني، فتكاد تنفجر!. من أين يأتي الهواء؟!.

لم أستطع فتح عينيّ، فرحت أتذكّر من أنا، ورحت أتحسّس ذكرياتي؛ اسميّ محمّد، وأنا من سوريا. من أين من سوريا؟. شعرت كأنّني أرجع من رحلة تخدير بعد عمليّة جراحيّة في العقل، فصرت أرى الدّوائر، والمثلّثات، والنّجوم، والمربّعات بحركة متلاحقة التّوتّر، والتّواتر، تتكرّر بألوان زاهية، تنطلق كل مرّة من جهة مختلفة من نقطة فراغيّة، لتصل إلى بؤرة مجهولة ضبابيّة.

أين أنا؟ وماذا أفعل هنا؟ تذكّرت؛ أنا محمّد خالد من بانياس. أين بانياس هذه؟.

راحت الذّكريات تنسلّ من بين المثلّثات، والدّوائر الملوّنة، فرأيت عمر ولدي يبني مسجداً من طين تحت شجرة

البلّوط أمام البيت، ولكنّني لم أعرف أين أنا الآن، وها أنا أرى لميس ابنتي تداعب أخاها عمر، فترمي الحصى على مسجده، فيطاردها، فتهرب إلى أمّها؛ زوجتي خديجة. . . خديجة. . خديجة، يا إلٰهي، يا ربّ، يا الله؛ ماذا حدث؟ ما معنى هذا؟ من هؤلاء؟.

لا أزال مغمض العينين؛ إرادة، أو قصراً؟ لا أعلم، ولكنّني أرى الصّور تنهال عليّ، أرى عمر يبني مسجده، وأرى أخته تداعبه برمي الحصى، ورأيتني أجلس على كرسيّ في الحديقة، أراقبهما مسروراً راضياً، فأحسّ الآن بشيء من الحرارة تسري في عروقي، فتخفّ البرودة العظيمة التي تأكلني، فأستطيع تحريك يدي، فأتلمّس فخذي.

قريتُنا من قرى بانياس الهادئة الوادعة، من القرى التي يصلها نسيم البحر في أواخر أنفاسه، فيصل منهكاً لطيفاً، ينعشنا، لكنّ نسيم البحر صار يأتي ثقيلاً محمّلاً برائحة دماء لزجة. رائحة الدّماء تثير النّفوس، ولزوجتها تميّع الأرواح، وأحياناً كان يهبّ على قريتنا نسيم يأتي من درعا. يأتي النّسيم، وله صوت: «البايازيد كتب على الجدار، فكبر في يومين سنتين، فصار عمره سبعة عشر عاماً. البايازيد ورفاقه في السّجن، وآمر السّجن يريد أن يغتصب أمّهات الرّفاق»؛ فتبكي درعا، وتنزل دمعة بانياس، ويقول لي حسن الحمصيّ أبو

صالح: «لو كان ولدك عمر هو المحبوس، وهوالذي اقتلعت أظفاره، ويريد آمر السّجن أن يستدعي زوجتك، وأن. . .».

فأقول له: «اسكت. متى ستخرجون؟ أنا معكم».

ـ: «بعد صلاة الجمعة».

فصارت بانياس تغنّي كل جمعة بأصوات سينفونيّة مختلطة من جميع الأعمار من الجنسين. كانت الأصوات ساخنة مليئة بالتّعرّجات الصّاعدة بخلاف هذا الجدار الأملس البارد الذي مسسته الآن بيدي لأعرف أين أنا.

كلّ جمعة صلاة، وتظاهرة تهتف للحرّيّة بكلّ حرارة، كهذه الحرارة التي أحسّها بجسدي كلّما لمعت صورة النّاس يهتفون من بين المربّعات التي سرعان ما تختفي.

كنت أعود من التّظاهرة بعد صلاة الجمعة إلى الحديقة، فأجلس على كرسيّ المخصّص لي بانتظار كبّاية الشّاي في حين أستمتع بمراقبة ولديّ: عمر، ولميس يلعبان؛ عمر يبني مسجداً، ولميس تحذفه بالحصى، فيطاردها، فتهرب إلى أمّها خديجة التي تحمل صينية الشّاي التي تتلقى رفسة من جندي، فيرتطم إبريق الشّاي الملتهب في صدر زوجتي.

اقتحمت البيت مجموعةٌ من الجنود المدجّجين بالأسلحة، والسّكاكين، والسّواطير.

بعضهم له لحى سوداء، وبعضهم بلحى شائبة، وبعضهم بلا لحى، ولا شوارب. أسمع خديجة تصرخ بسبب خوف مرعب، لا بسبب احتراق صدرها بالشّاي الملتهب، فأهرع مجنوناً لأرى ما يحدث، لأصل، وأشاهد رجلاً يرتدي بذّة عسكريّة يمسك بولديّ عصفورين مبلسين، يظنّان أنهما يريان كابوساً، ليس حقيقيّاً، ولأرى رجلاً آخر على جبينه شيء يشبه عين الدجّال التي وصفها الشّيخ محمود. وصلت راكضاً إلى المطبخ لأصعق بالمشهد، ولتهوي على رأسي بندقيّة بضربة تطيح بأذني، فأقع على الأرض، أتخبّط بدمي، ولكنّي واعٍ، لأرى شعر خديجة بعد أن نزع حجابها «الدّجّال» الذي لا يلبَس ثياباً عسكريّة.

ـ: «إسمك خديجة؟». لم تجب.

ـ: «أهلاً، أهلاً. هل أصابك شيء من الشّاي؟ أرني صدرك»، ومدّ يده إلى صدرها، فصرخت، وهجمتُ كالثّور الهائج، لتتلقّاني سكّينة في خاصرتي، فينهمر الدّم غزيراً أحمر على بلاط المطبخ الأبيض.

ـ: «دعها...».

صرختْ. مزّقوا ثيابها، ورحمني أحد الوحوش بضربة على عينيّ، فيطفح الدّم، والورم السّريع في عينيّ. صرختْ خديجة، وصرختُ، ومع كلّ صرخة كانت ضربة سكّين تنزرع

في مكان من جسدي، فيطغى الأحمر على الأبيض، ثمّ راح الصّراخ يخفّ، ولكنّ الطّعنات بقيت كما هي تتلاحق على وقع أزيز الأنّات، وأخيراً خفتَ الصّوت، ثمّ مات، وصار نزيفي يتباطأ شيئاً فشيئاً.

جرّوني خارج البيت، وأنا ألمح خديجة ممزّقة الثّياب، والجسد، مرميّة جثّة مشوّهة. جرّوني، وأنا أنظر إلى عمر، ولميس، وما زالا عصفورين يرتجفان. لماذا لا أموت؟ إلى أين يأخذوننا؟.

أرى نفسي في ساحة القرية، وأولاد الجيران موقوفون في أطلال بيت المختار. جُمع الأولاد في الزّاوية، وأنا، وبعض الأهل محتجزون ضمن غابة من البنادق.

ـ: «واحد تنين تلاتة»، وهجمت السّكاكين، والسّواطير على الأجساد النّاعمة النّديّة. صرخ والدٌ؛ فأمطر جسمه بالنّيران التي مزّقته، وركضت أمٌّ؛ فطارت ساقاها بساطور «الدّجّال»، وعاجلتها رصاصة في رأسها، وهجمت الخناجر على الصّغار، وذبح بعضهم ذبح النّعاج، ومُزّق بعضهم، وعلا الصّراخ، والنّحيب، والعويل، والرّعب، وقتل كلّ ولد عدّة مرّات. كانت الأنّات تتصاعد إلى السّماء حين ابتعد الجوارح عن الأجساد الممزّقة، لتبدأ عمليّة إطلاق الرّصاص للمسات الأخيرة، فتصيب طلقة خد ابنتي لميس، ولم أتبين عمر تحت أكداس اللّحوم المقطّعة.

كنت أرى بعض ذلك، وأنا ميّت. كنت أرى كلّ الأولاد لهم وجه عمر، وكلّ البنات لهنّ شعر لميس الأحمر. كنت أحسّ بجسدي صار خيوطاً تنسحب منّي خيطاً خيطاً، وكان آخر ما رأيت الدّماء اللّزجة متناثرة في كلّ الأمكنة، ورائحة الدّماء تملأ الأجواء. رائحة الدّماء أشمّها الآن. بكيت، وحاولت فتح عينيّ. لم أقدر، فتلمسّت جسمي، فغارت أصابعي في جرح فخذي الأيسر الذي جفّ دمه. تحسّست خصري، فغارت أصابعي. مددت يدي لأتلمّس الجدار الأملس البارد، ومددت قدمي، فتلمس باباً صغيراً يشبه باب برّاد الموتى.

ماذا أفعل هنا؟ هل أنا ميّت؟ ولكن لو كنت ميتاً لما تساءلت، ولكن هل أنا حيّ؟ أين خديجة؟... يا ويلي، عمر!! ماذا حلّ به؟ لميس، هل تغيّر لون شعرِك؟ يا ويلي!! أهلي! يا ربّ. لماذا أنا في برّاد الموتى؟ أنا لم أمت بعد، ولكنّني أشمّ رائحة الدّماء، ورائحة الجنّة تختلطان، وأرى خديجة بفستانها الأبيض هناك تحت شجرة طوبى، وعمر قربها يبني مسجداً من طين، ولميس تحذفه بالحصى، وأنا أمشي من بعيد نحوهم، فينظرون إليّ، ويبتسمون.

: «أنا قادم. أنا قادم»، ولكن يجب أن أقول لمن هم خارج البرّاد بأنّني ذاهب. سأقول لهم أنّني الآن حيّ في برّاد

الموتى. افتحوا الباب. افتحوا الباب. لم يردّ أحد. مددت يدي إلى فخذي الأيمن الذي تلقّى آخر الطّعنات، فأخذت بإصبعي بعض دمائي، ورحت أكتب على الجدار الأملس، صرت أغطّ ريشة إصبعي في مداد دمي، وأكتب.

انتظرتْ خديجة انتهائي من كتابة رسالتي، أنهيتُ، وانطلقتُ، وابتسم عمر، وسرّحت لميس شعرها لاستقبالي، وصلتُ عندهم. خلعتُ ثيابي الحمراء، فنبتت لي ثياب خضراء مسكيّة، وأغمضت عينيّ.

....

سُمعت حركة في هذا البرّاد الذي وضعت فيه أجساد مجزرة بانياس؛ ففتح بابٌ منها، وأخرج شهيدٌ، ورُؤيت كتابة على الجدار الأملس، كتابة بالدّماء: محمّد الحرّ...

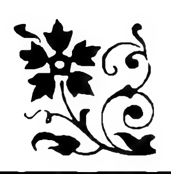
مهداة إلى روح محمّد أبو العيون المحاميد
الأحد: ١٩ ـ ٥ ـ ٢٠١٣م



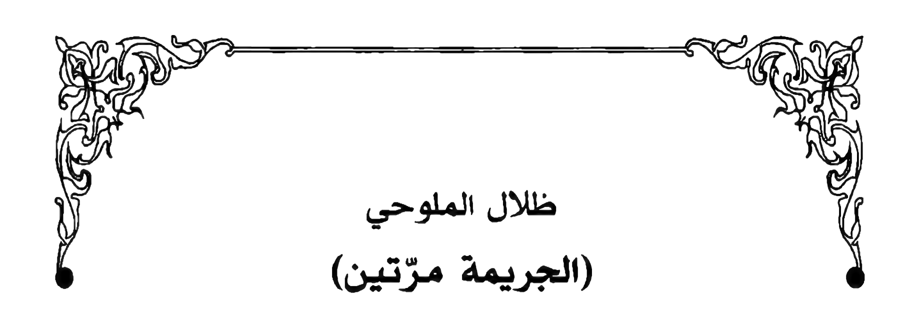


ظلال الملوحي

(الجريمة مرّتين)







ظلال الملوحي
(الجريمة مرّتين)

سيرتفع صوت الحبر في زمن قلّ فيه الرّجال.

من قال أنّ الأنثى لا تملك صفة الرّجولة؟ ألا ترى أنّ الرّجولة كلمة مؤنّثة؟.

أليس الكون ذكراً وأنثى؟ ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾.

نحن محاصرون منذ ثمانية أشهر؛ لا طعام إلّا النّذر اليسير الرّديء، ولا شراب إلّا ما تيسّر، وربطة الخبز ثمنها أجساد ممزّقة مقطّعة على قارعة الطّريق، ونستيقظ على ما لا ننام عليه؛ قصف ليل نهار، وموت صباح مساء.

كم عائلة في حمص أصابها مدفع الإفطار!! فأفطرت في الجنّة.

وكم أسرة أصابها مدفع السّحور!!؛ فتناثرت حبيبات التّمر المعدودة مع لحوم الآكلين على الجدران المتصدّعة!.

كلّ هذا أهون من قصّة ظلال الملوحي، وهنا سكتت محدّثتي النّاجية من حمص، ثمّ عاودتْ بعد دقائق، توجّه

حديثها إليّ: «قلتَ لي أنّك تكتب قصصاً عن الشّخصيات السّوريّة! اسمع إذاً:

ظلال الملوحي فتاة جامعيّة في سنة التخرّج، قسم الصّيدلة، جميلة بيضاء الوجه، مثل القمر، محجّبة، محافظة على صلاتها، مدوّرة الوجه، بعينين سوداوين مبطّنتين، ذات خلق رضيّ، معروف عنها في الحيّ أنّها لا تكلّم أحداً ما لم يكلمها، ولا تردّ على من لا تعرف، رقيقة كنسمة صيف، لطيفة كعطر وردة جوريّة عند أصيل دمشق العتيقة. قالوا لها يوماً أنّ الشّيخ «سعيد الخالدي» يريد خطبتها؛ فكاد يغشى عليها، وتساقطت أزهار الدّفلى من خديّها، وطارت آلاف الفراشات بكلّ الأنحاء تزرع الألوان والياسمين، وتنثر الأحلام، والخيالات النّاعمة.

والدها الحاج عبد الكريم الملوحيّ، لكنّ أهل الحيّ كانوا ينادونه بالحاجّ الحلو، لجمال وجهه بلحيته البيضاء، ولأخلاقه الرّضيّة، ولثيابه المهفهفة المعطّرة. لم يؤْثر عنه خلافاً مع أحد، ولا شجاراً مع شخص قريبٍ، أو بعيدٍ.

وقامت الثّورة، وجُنّ جيشنا الباسل الذي كنّا نغنّي له الأمجاد بالأعياد. جنّ وراح يقصف الأحياء، ويدمّر البيوت، وصرنا نسمع هتافات ما كنّا نسمعها من قبل؛ هتافات دينيّة طائفيّة، وصرنا نسمع شتائم للأحياء، وللأموات، وللأولياء،

وللصّالحين. لأوّل مرّة نسمع لغات أخرى، ولهجات من بلدان قريبة، وبعيدة، وأغاني حزبيّة تصدّع رؤوسنا ليلاً. كانت أشدّ وقعاً من قذائف الهاون، والآر بي جي». ضحكت محدّثتي ضحكة قرمزيّة صفراء، ثمّ أرفدت: «صرت أعرف الأسلحة من أصواتها، وأعرف قدرة تدميرها، وبلد المنشأ، كما يقولون»، وضحكت مرّة أخرى ضحكة انتهت بدمعتين ملأتا عينيها، ثمّ سقطتا لؤلؤتين حمراوين على خدّين بلا لون.

كلّ هذا أهون من قصّة جارتي ظلال. كانت ليلة خطبتها على الشّيخ «سعيد». كانت ليلة خطبتها رغم القصف، والدّمار، رغم القتل، والحكايا التي لا تصدّق. كانت اللّيلة الموعودة؛ لا زينة، ولا ضجيج. كلّ شيء على السّكت... ولكن، من أخبرهم؟؟.

دُقّ الباب بعنف، فقام الحاجّ الحلو ليفتح الباب الذي طار على وجه الحاجّ عبد الكريم برفسة من مخلوقٍ مدجّج بكتيبة من عساكر الموت، بسحنات غريبة، بوجوه كالجواميس الحمراء، يتجلّى حقدها على البشر بعبوس واكفهرار.

سقط الحاجّ مضرّجاً بدمائه التي تناثرت على «دشداشته» البيضاء. صرخ القائد: «تعا يا شيخ يا كلب، عم تحكي عن الظّلم؟! بالجامع يا قرد؟ الجامع مِلْك أهلك، ولكْ حقير؟!»، وجذب الشّيخ من ياقة قميصه؛ فأراد الشّيخ أن ينتقم لكرامته،

لكنّ الرّشاشات عاجلته بمجموعة ضربات من أعقابها على رأسه، وظهره؛ فسقط على أرض الوطن مهزوماً بكلِّ شعارات النّصر، والتّسليح، والتّحرير. كانت هذه آخر مرّة ترى فيها ظلال الشّيخ «سعيد».

ـ: «جيبولي هالكلاب على الفرع، جيبولي العروس معهم».

ظلال لم تشعر كيف أُخرجت، وكيف رُميت في سيّارة «الأمن»، لم تشعر كيف تحسّستها أيدي العناصر، هي تُدخل إلى الفرع. لم تحسّ بشيء إلّا عندما أيقظتها دفعة أسفل ظهرها ألقتها على وجهها.

كان هذا هو التّمزيق الأوّل في فستانها الأبيض. وقفت لتتلقّى السّؤال الأوّل.

ـ: «شو إسمك؟».

ـ: «ظ. . ظلال».

ـ: «أبوك؟».

ـ: «عبد الكريم».

ـ: «عبد الكريم؟! قلتيلي عبد الكري ـ ـ ـ م!؟!». قالها بتمطيط هازئ دبق لزج. . . أردف: «والشّيخ الكلب. . . شو بيكون؟».

دمعت عيناها، وأجابت: «. . . خطيبي».

ـ: «خطيبك؟!؟ هه هه. . . خطيبك هادا الكلب!».

كان التّحقيق مع ظلال، وهي واقفة، ولدى أوّل سؤال صارت ظلال لا ظلّ لها، رغم الأضواء المتوحّشة التي صُبّت على وجهها. بقيت واقفة أكثر من ساعة.

ذهب الجنديّ الذي قام بدور المحقّق. خرج ليدخل بدلاً منه عسكري آخر. عرّف عن نفسه: «أنا آمر الفرع. . . شو قصّتكن؟».

وأعاد الأسئلة نفسها التي سألها الأوّل، وأجابت ظلال للثّاني، كما أجابت الأوّل، لكنّ الأسئلة هذه المرّة كان لها طعم آخر. كان آمر الفرع يسأل، وكانت عيناه تتفحّصان جسدها من أعلى إلى أسفل، وبالعكس. ما كان يريد الإجابة بقدر ما كان يريد أن يرى شفتيها، وهي ترتجف في الإجابات عن الأسئلة السّخيفة.

ـ: «قلتيلي خطيبة الشّيخ؟!».

ـ: «نعم. . .».

ـ: «بيقولّك شو بيحكي بالجامع؟».

فأجابت بدمعتين انهارتا على البلاط.

ـ: «شو بدّو حضرة الشّيخ؟؟ بدّو حريّي؟»، وارتفع

صوته: «مش معاجبو النّظام؟؟ شو بدّو الفوضى؟؟!». قال جملته الأخيرة بصراخ منفعل، وأردف: «مش معاجبو الرّئيس؟؟ بدّو العرعور؟؟»، وزعق بوحشيّة: «ومع هالشّي بدّو يعيش بالبلد؟؟!! ويخطب، ويتجوّز، ويخلّف «عراعير» صغار؟؟!». كان يصرخ، وكانت ظلال تنكمش، وتتلاشى، وتختفي.

ـ: «أنا بفرجيكن يا كلاب!! البلد ملك إمّو للشّيخ! ولكْ ما تعلّمتو من حماه! أنا بعلّمكن! بدكن الله!! ما كنتو عم تصوموا، وتصلّوا يا حمير؟ شو بدكن؟؟ وبتاكلوا، وبتسمّموا؟؟ شو بدكن بعد؟؟». وقفز من مكانه، وصرخ بوجهها: «قال محجّبة قال؟!؟ مو حرام هالشّعر الحلو يتغطّى؟؟!!، وبحركة كالفهد انتزع حجابها، بوحشيّة بربريّة، فانهار الشّعر النّاعم مثل كثبان الصّحارى العربيّة التي ماتت عندما عاش الزّعماء. أرادت ظلال أن تتناول حجابها. لم تطاوعها يداها، وسقط القرميد الأحمر، وتهشّم قطعاً متناثرة من شقائق النّعمان.

ـ: «حلوة، ما شاء الرّئيس!! ها ها هي هئ هئ... هاتولي الحاجّ الكبير».

وما إن أنهى جملته، حتّى رُمي بالحاجّ عبد الكريم داخل الغرفة السّوداء، مثل كيس نفايات، ثمّ صرخ الآمر: «تيمور، سومر، كمشوا الحاجّ الكلب». دخلا، وأمسكاه بقسوة بعد عدّة

لطمات على وجهه، ورأسه، فزاد نزيف الدّماء، وعاد الآمر للصّراخ: «خلّووا يشوف، خلّووا يتفرّج»، ووثب إلى ظلال التي حاولت أن تعتصم بالجدار، لكنّه جدار أسود لا شرف له. مدّ يده ليمزّق ثيابها، وليستمتع بالتّمزيق، وراح يمزّق الثّياب ببرودة أعصاب، وهمجيّة تتريّة هادئة. حاولت الدّفاع عن نفسها، لكنّه كان وحشاً بريّاً ضارياً. حاولت أن تبعده عنها، ولكنّه كان ضخماً. جرّبت ضربه؛ فتلقّت قبضة على ظهرها، وإظفراً تحت عينها.

مزّق ثيابها في جوّ من صراخها الممزّق المتحشرج، ودموع والدها الحاجّ الذي أُجبر على الرّؤية المالحة الأُجاج، وهجم عليها الوحش، وهي عارية التّمزّق، ولا زال لديها شيءٌ من الوعي، فحاولت أن تستر أسوأ عريها بحركة جسمها. كان همّها في البداية أن تحمي شرفها، ثمّ تحوّل همّها إلى حماية عيني والدها.

تمزيق، وصراخ، وتمنٍّ لو كان أبوها أعمى. صراخ، ووحشيّة، ونهش، وأظافر، ودماء. حاولت أن تأمر جسدها أن يصير رصيفاً، لكنّ أرصفة البلد كلّها كفرت. ألقى بجِرمه عليها، ولكنّها استطاعت أن تحوّل جسمها الممزّق إلى إسفلت مرمريّ من رخام ميّت. قتلت إحساسها عندما ذُبح لحمها. وكانت معركة.

وفي النّهاية انتهت حفلة أكلة لحوم البشر. انتهت طقوس حفلة الضّجيج، وتراجعت ظلال إلى الزّاوية مكوّمة نفسها على نفسها. كانت تظنّهم حيوانات بلا رحمة، لكنّ واحداً منهم رمى عليها ثوبها بعد نصف ساعة.

خرج الوحوش من الغرفة، وتوقّف الزّمن. لم تشعر ظلال بأنّها تحوّلت إلى مخلوق آخر، إلى كائن مختلف. لم تعرف نفسها، وصارت المرآة هي أكثر شيء مكروه في الوجود. أمّا والدها فلم تستطع أن تتنكّر له، أو أن ترفضه، وهذا ما كان يعذّبها، ويؤلمها، ويكسرها.

ـ: «زُتّوا هالكلاب برّا».

خرجت ظلال بثيابها المُدمّاة، وبوجهها المزروع بالأظافر. كان الحاجّ يضع يده على كتفها لتكون أقرب إليه من الوحوش، ونظراتهم.

خلال طريق الهزيمة كانت ظلال تستغرب كيف تحسّ بالهواء يلفح وجنتيها، وهي ميتة! هي متأكّدة أنّها ماتت؛ لا يمكن أن يتعرّض جبلٌ لما تعرّضت له، ويبقى حيّاً.

أنا ميتة مثل الحلم. وقد يموت الإنسان، وهو يحلم في الوقت نفسه.

كان أكثر ما يؤلمها في جسمها هو عيني والدها. كانت تشعر بهما ينتفخان إلى حدّ الانفجار، بل لقد انفجرتا فعلاً،

وتناثرتا على الماضي السّحيق، ومع ذلك فقد زاد ألمهما الذي امتدّ خيوطاً من أسلاك شائكة داخل القطن الذي يؤلّف الرّوح المجروح.

عادا سيراً على الأقدام. ما كانت تعي أنّها تمشي. ما كانت ترى. ما كانت تدرك. كانت تمرّ أسئلة أمام مرآة فكرها: لماذا خُلقت؟ لماذا أعيش هنا؟ من أنا؟ من هؤلاء الوحوش؟ من أين جاؤوا. من قال لهم أن يفعلوا ذلك؟ لماذا مزّقوني؟.

من هذا الذي يضع يده على كتفي؟ فصرخت. صرخت كذئبة برّيّة قُصّت يدها. شَقَّ صوتُها الفضاء المشحون بزئير الصّواريخ، ولعلعة القذائف، وعربدة الطّلقات النّاريّة.

لماذا قتلوني؟ لماذا مزّقوني؟ ماذا فعلت لهم؟ والله، أنا سوريّة!.

أبي! كيف أنظر إلى وجه أبي، ولحية أبي؟ ماذا سيسمّيه الآن أهل الحيّ؟ كيف سيراني الآن؟ هل سيراني عاره إلى الأبد؟.

هل أنا أنا؟ كيف ستراني الآن وردتي التي على الشّرفة؟ والشّرفة في البناية، والبناية أربعة طوابق، وبيت الحاجّ الحلو في الطّابق الخامس.

أحبّ الشّرفة، والشّرفة مدهونة بالأحمر. الأحمر الذي يسيل على ساقيّ، ويصعد الدّم السّلالم للطّوابق؛ طوابق قالب

الحلوى يوم نجحت في البكالوريا. جلسنا على الشّرفة.

ـ: «خدني ع البرنده»، قالت ظلال دون إدراك.

ـ: «يا بنتي فوتي نامي شوي».

لم تسمع ما قال والدها الذي ولج البيت الأعور.

ـ: «خدني ع البرنده».

ـ: «يا بنتي ارتاحي شوي قبل».

لم تسمع. لم تنظر. لم تر.

ـ: «خدني ع البرنده».

وجدت ظلال نفسها على الشّرفة. كيف وصلت؟ لا تعلم. ألفت نفسها هناك؛ على المقعد الأثير لديها. كان أبوها يمسك بها. لم تشعر به. كان النّسيم عليلاً. لم تحسّ به. منظر الدّمار أمامها لم تتبيّنه. اختفى كلّ شيء. اختفى كلّ شيء خلف رقرقة عينيها، وغامت كلّ الصّور. اختفى كلّ شيء.

. . . .

وما هي إلّا لحظة خاطفة، مسروقة من الزّمن حتّى كان جسدها المهشّم قد استقرّ على قارعة الطريق أسفل البناية، وتكسّر جسد الزّجاج الشّفّاف، والتحم جسمها بالإسفلت الأحمر، وذاب شعرها في شجرة الكينا، وامتصّ التّراب نسغ الظّلال، وتحوّلت ظلال إلى ظلال، وتلاشت في الفضاء

خيوطاً عطريّة ورديّة، وفاح الشّذى اللّزج في كلّ الطّرقات، وصارت ظلال روحاً تائهة في شوارع حمص العتيقة.

رمت ظلال جسدها من الشّرفة، وبقيت روحها ترفرف قرب الغمام فوق حمص.

الأربعاء: ٣١ ـ ٧ ـ ٢٠١٣م
٢٢ رمضان ـ ١٤٣٤هـ

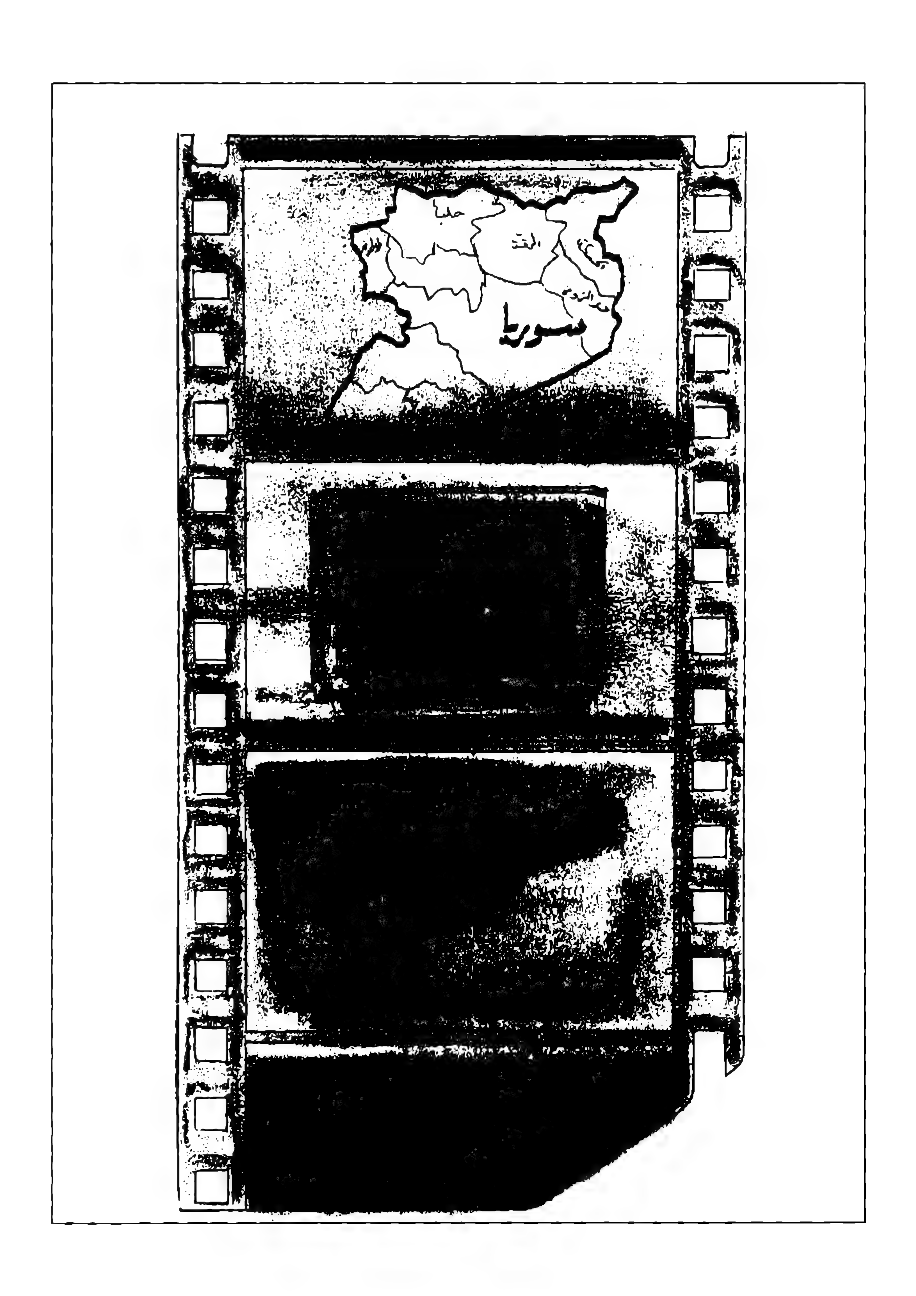


ضياء القصير

(ثلاثة مشاهد: حمص، وتلفاز، وشرف)

(قطرة ماء في جدار الصّحراء)




سوريا
حلب

ضياء القصير
(ثلاثة مشاهد: حمص، وتلفاز، وشرف)
(قطرة ماء في جدار الصّحراء)

المشهد الأوّل:

لو لم تحدث هذه القصّة معي، وحُكيت لي لما صدّقتها، ولا أدري كيف انتشرت هذه القصّة، وتداولها النّاس بهذا الشّكل! أنا نفسي لا أعلم!.

أحكي القصّة، وأكاد لا أصدّق أنّها حدثت، ولكنّ الثّورة جعلت المستحيل كتاباً يُقرأ. الثّورة حقّقت المستحيل، فتحوّل المحال رجالاً؛ رجالاً سيصيرون هم التّاريخ.

أنا ضياء القصير من حمص، من الخالديّة، من عند سيّدنا خالد بن الوليد؛ سيف الله المسلول. كنت أقضي معظم أوقاتي، وأحلاها في مقام «سيدي خالد»؛ أجلس تحت الشّجرة الكبيرة، أستمتع بالأناشيد في مدح سيّدنا الرّسول، عليه الصّلاة والسّلام، وأشتري ما آكله، وما أعظمها من متعة أن أقوم، فأتوضأ، وأصلّي ركعتين! ثمّ أقرأ الفاتحة لروح سيّدي خالد، ثمّ أعود إلى جلستي، في مكاني المعهود،

وأراقب وفود الزّائرين، وأستمع إلى مدح النبيّ، عليه الصّلاة، والسّلام!.

أنا الشّابّ الأصغر في عائلتي. البكر هو محمود، ثمّ سلمى، ثمّ خالد، ثمّ أنا: ضياء.

والدي باسم القَصير أبو محمود، رجلٌ حمصيّ كادحٌ في سبيل رزق عياله، محافظ على صلاته، ويشاركني عشقي لمسجد سيّدي خالد، ولكن لكلّ منّا وقته الخاصّ في الاسترواح في رحاب السّيّد.

هكذا كانت الحال حتّى اشتعلت الثّورة، وأراد الشّعب حرّيّته من الظّلم، والاستبداد، والرّشاوى، والوساطة، والطّائفيّة، والإذلال، وكانت مظاهرات، وهتافات للحرّيّة، ومن ثَمّ كان الرّصاص، والقذائف، والقصف على المدينة، والصّواريخ، وألقت الطّائرات براميلها، وصواريخها، ومُزّقت النّاس، ودُفنت الأشلاء، وأطلق الرّصاص، وحُصدت الأرواح، وكان القتل الميدانيّ في السّاحات، وهُدّمت البيوت، وشُرّد الأهالي، وقَلّ الخبز، وقصف النّاس على أبواب الأفران، وكان الحصار، واشتدت القبضة، وفقد المازوت، ومات النّاس قهراً، وتدخّل العالم كلّه؛ تدخّل لنصرة الظّالم، ومساعدته على التّجزير، وكانت المجازر الواحدة تلو الأخرى، وكانت المقابر الجماعيّة المتتالية، ويوميّاً نسمع رتلاً من هذه

الأخبار: قتل أبو فلان الحلوانيّ، دمّر بيت أبي سعيد على رأسه، ورأس عياله، اغتصبت فتاة، اعتقل طالب جامعيّ، قُصف فرن خبز، وغيرها من الأخبار الشّبيهة. وغلت الأسعار، ودخل المجاهدون إلى حمص، فجنّ الجيش أكثر، وضاقت الدّنيا أكثر.

وعلى الرّغم من القصف، والطّائرات، والمعارك اللّيلية، والكرّ والفرّ، والتّفجير هنا أو هناك، وعلى الرّغم من قصف مسجد سيّدي خالد، وتهشيم أحجاره، وتدمير مآذنه، وتهديم المقام بالصّواريخ، وذبح التّاريخ أمام محراب المقام.

كلّ هذه الصّور القاتمة، ولا زلنا أحياء، ويسعى والدي وإخوتي لتأمين لقمة العيش التي تطبخها والدتي بما تيسّر من المدّخر، أو المخترع.

لكنّ القصف ازداد، واستعر، والحصار صار خانقاً يكاد يزهق الرّوح. القصف يقترب أكثر يوماً بعد يوم، وغالب البيوت والمحالّ التي قربنا قد دمّرت، و... وصلنا إلى قرار.

جمعَنا والدي مساءً، وقال: «غداً سنكون قد جهّزنا أغراضنا الخفيفة، وما تبقّى من أغراضنا الثّمينة، وسنرحل إلى درعا؛ هناك يوجد رجل شريف يستقبل النّاس أيّاماً حتّى يؤمّن لهم الخروج من البلد، فاستعدّوا».

لم يناقش أحد. لم يتكلّم أحد. كانت الصّورة واضحة

لدينا تماماً. المعارك صارت قرب باب البيت، حتّى لقد مات مجموعة من الجنود أمام بيتنا.

وفي اللّيلة المشؤومة عندما استطاع الجيش أن يجبر الثّوّار على التّراجع، دخل الجيش الخالديّة فاتحاً منتصراً مظفّراً، ودخل معهم الشّبّيحة المرتزقة. في هذه اللّيلة كان القصف أشدّ ما يكون، لكنّه هدأ بعد ساعات، وصرْتُ أسمع الصّراخ والتّكسير يزحف صوبنا، إلى أن جاء دورنا، وبدأ التّكسير والتّهشيم في بيتنا، لكنّ الصّراخ عندنا كان غريباً؛ صراخ والدتي، ووالدي، وأختي.

كان الثّوّار قد تراجعوا تحت وطأة القصف العنيف، وتحت وطأة اللّغات الأخرى، واللّهجات الغريبة غير السّوريّة.

دخلت مجموعة إلى بيتنا. تقدّم العناصر إليّ، وإلى إخوتي، وبدون مقدّمات بدأ الرّكل، والضّرب، والشّتم. حاولت أن أحمي نفسي، فأدرت ظهري، وإذا بي أتلقّى أعقاب الرّشاشات على أسفل رأسي؛ فأفقد وعيي على وقع صراخ أبي، وأمّي التي كان صراخها مزعجاً أكثر.

كنت أسمع صراخاتٍ مجروحةً نازفةً، وأنا غارق في بحر الإغماء والدّماء.

أفقت بعد ساعات طويلة في مشفى ميدانيّ، ليفاجئني والدي: «إستشهد أخوك محمود».

ومات كلّ الكلام! وعاش كلّ التّخاذل!.

لم يعد بالإمكان البقاء في البيت بعدما حدث، وليس ما يمنع تكرار المأساة، فقرّر والدي الخروج، فتجهّزنا، ورحلنا إلى درعا، وكان وصولنا إلى درعا معجزة أخرى.

المشهد الثّاني:

ـ: «أنا أبو محمود القصير من حمص، لديّ ولدان وبنت، وابني البكر محمود، والحمد لله، شهيد، دلّنا النّاس الأفاضل على حضرتك، قالوا عنك: رجل شريف يحبّ مساعدة النّاس؛ يستقبلهم في بيته، ويساعدهم بالخروج من البلد».

قال الرّجل الدّرعاويّ: «أهلاً وسهلاً بكم».

ـ: «مع إنّو ما بيجمع بيننا إلّا إنّا سوريين».

ـ: «النّاس لبعضا».

استقبلنا الرّجل الطّيّب في بيته، وأنزلنا في صالة كبيرة مخصّصة للضّيوف، لنستريح من عناء رحلة الهجرة السّوداء، وجاءت زوجته، وأخذت أمّ محمود، وابنتي المحطّمة السّاهمة العينين، وأدخل ولدي إلى غرفة أخرى، وجلست وحدي مع الرّجل الدّرعاوي الشّريف.

قال: «حكيلي قصّتك».

كنت أفضّل أن لا أتكلّم، ولكنّني فعلت احتراماً لمضيفي، وماذا أقول؟ لا يمكن لكلّ شيء أن يقال. . .

ولكنّي قلت: «فاتوا على البيت بعدما انسحب الجيش الحرّ من الخالديّة، فاتوا متل الوحوش، هجموا على ولادي الشّباب، إبني ضياء أكل ضربة على راسو، فغاب عن الوعي، وما شاف شي، مرتي ضربا واحد فخبط وجها بالحيط، وحاول إبني محمود، الله يرحمو، إنّو يعمل شي بس ما قدر بلّشو فيه ضرب بالبواريد، وأنا وجهي متل ما شايف: أشكال ألوان بس المصيبة الكبيرة بنتي. . .»، واختنق الكلام بالماء.

ـ: «وحّد الله. . . ليش عم تبكي؟. . . صلّ على النّبيّ. . . اللهمّ، صل على النّبيّ، وآل النّبيّ».

ـ: «بنتي. . . !!».

ـ: «شو بها؟».

ـ: «. . . بنتي . . .الله لا يسامحن، الله يلعنن، الله ينتقم منن. . . يا الله، يا الله».

ورحت أصرخ.

ـ: «خلص، خلص، صلّ على النبي، اللَّهُمَّ، صلّ عليه، الله أكبر على كلّ ظالم».

ـ: «يـا الله... بـنـتـي... قـدّامـي!! قـدّامـي!! الله يلعنن ...الله يغضب علين، والله حرام...

تخلّص محمود من اللي كامشينو، وهجم، وقبل ما يعمل شي كانت... كانت الرّصاصة... براسو، براسو، يا الله! يا الله!!».

سكتُّ، وبكيتُ، وقام الرّجل الدّرعاوي، وناولني كوب ماء، شربته، كان طعمه كطعم السّكّين الصّدئ...

ـ: «قدّامي... اغتصبها، قدّامي، ما بنسى وجّهو طول ما أنا طيّب... إلو شوارب رفاع، ولحيتو شقرا، وعيونو متل عيون الدّيب، لونن بنّي».

ـ: «إي...!؟!». قال مضيفي باستغراب، وأردف: «وهادا الوسخ ضعيف ولّلا سمين؟».

ـ: «ضعيف كتير، نحيل، بس وجهو طِفِحْ مدوّر».

ـ: «إي، وشو صار بعد؟». سأل هذا السّؤال بلهجة مرّة.

قلتُ: «ولمّا خلصت الجريمة، صرخ، وقال: بعد بدّي هديّة، رح آخد هادا التّلفزيون، رح آخدوا ذكرى منكن، يا كلاب».

أخد التلفزيون، بزق علينا، وراحوا».

دمعت عيناه، وقال الدّرعاويّ: «طيّب، قوم غسّل وجّك. صارت اللّقمة جاهزة».

أكلنا، والله أعلم كيف أكلنا، وماذا أكلنا، ولمّا انتهينا من الأكل، قال مضيفي الرّجل الطيّب: «قوم نحضر أخبار لنشوف إذا في شي جديد».

قمنا، ودخلنا إلى غرفة الصّالون، وما إن دخلت، حتّى صرخت: «يا ويلي، ييي، شو هاد؟».

ذُعر الرّجل، وقال: «شو باك؟ شو صارلك؟ شو في».

صرختُ: «هادا التّلفزيون إلي... هادا تلفزيوني!!».

ـ: «شو عم تحكي؟؟ كيف إلك؟».

ـ: «والله العظيم، هادا التّلفزيون إلي!».

ـ: «وحّد الله... شو هالحكي!!؟».

ـ: «حكيتلّك عن التّلفزيون، وقلتلّك الّلي اغتصب بنتي، وقتل إبني سرق التّلفزيون، وحكيتلّك عنّ التلفزيون؛ لأنّي حطّيت فيه دهبات مرتي بقماشة خضرا حرير!».

صرخ مضيفي: «لأ... لأ، مش معقول، مش معقول يكون التّلفزيون إلك!».

ـ: «عم قلّك إلي، عطيني مفكّ براغي».

ذهب، وعاد بلحظة: «خود».

هنيهة، وفتحتُ ظهر التّلفزيون، وأخرجتُ صُرّة خضراء حريريّة أمام عينيّ الرّجل الدّرعاوي الطّيّب الذي شُده، وتصنّم، وأبلس، وسقط على الأرض كالجدار.

ـ: «شفت؟ ما قلتلّك... هادا التّلفزيون إلي... بس كيف وصل لهون؟؟ والله، غريبة!! غريبة هاي كتير!!».

المشهد الثّالث:

انكسر ظهري، وصرتُ حكاية بكلّ سوريا، أنا سوريّ، وأحبّ سوريا. أنا ضابط متقاعد، أحبّ بلدي، ولكم حزنت لما يجري؛ تابعت الأخبار، ورأيت ما يحدث، شاهدت القتل، والدّمار، والتّهجير؛ ففتحت بيتي لمساعدة إخواني السّوريين، واشتهر اسمي، وصار النّاس يلجأون إلى بيت الرّجل الشّريف الدّرعاوي الذي يستقبلهم، ويؤويهم، ويضيّفهم في بيته، حتّى يؤمّن لهم الخروج من البلد.

أنا عبد الهادي الشّربجي من درعا، أستقبل الهاربين في بيتي، وأسمع منهم قصصهم التي تشيّب الولدان.

واليوم لجأ إليّ رجل حمصيّ اسمه أبو محمود القَصير، بسَمْتِه الوقور، ولحيته الشّمطاء التي فيها بقيّة من شباب، وفيها زوّار بيض من زمن آخر، بسحنةٍ منهكةٍ من ضنك الطّريق.

جلس الحمصيّ منكسراً، وحكى لي حكاية هي أغرب

من الخيال؛ حكى لي كيف دخل الجنود، والغرباء إلى بيته، وكيف قام واحد معهم بقتل ولده، واغتصاب ابنته، وسرقة بعض أثاثه بيته. كانت قصّة غريبة جدّاً؛ فلم أصدقه، وأردت أن لا أصدقه، وأصرّيت على عدم تصديقه، خاصّةً لمّا وصف لي الشّابّ الذي فعل الفَعلة الشّنيعة؛ وصفه: ليس جنديّاً، بل كان شبّيحاً من أعوان الجيش، وصفه بأنّه طويل، نحيل، بوجه مدوّر، ولحية شقراء محدّدة تشبه لحية الفنّانين.

لم أُرد أن أصدقه، ولكنّه عندما رأى التّلفزيون الجديد صرخ بأنّ هذا التّلفزيون له، وأنّ هذا التّلفزيون سرقه الشّبّيح الذي قتل ولده، واغتصب ابنته.

أحضرتُ له مفكّ البراغي، وأنا أهرول بلا وعي. فكّ الحمصيّ ظهر التّلفزيون، وأخرج منه صرّة كان قد وصفها من قبل بأنّها صرّة بقماشة خضراء حريريّة فيها ذهبات زوجته.

استخرج الصّرّة الخضراء، وجلس يبكي، ويشهق بالبكاء، وسقطتُ ساهماً سادراً بالتّفكير. أحسست أنّ أعضائي تؤلمني، وزاد هذا الألم عندما أراني صورة ابنته الضّحيّة.

ـ: «كيف وصل هادا التّلفزيون لعندك؟!». سأل الحمصيّ بحرقة.

ـ: «ما بعرف... يمكن حدا باعو لإبني».

ـ: «يمكن. . . ! معقول!. . . كلّ شي معقول». وصمت الحمصيّ صمتاً طويلاً.

انتظرته، حتّى هدأ قليلاً، ثمّ أخذته إلى غرفة نوم الضّيوف، ليرتاح.

رجعت إلى الصّالون، ووقع منّي جسمي على الكنبة، ودخلت في غيبوبةٍ ذهنيّةٍ.

جلست لساعات، وساعات، لا أتحرّك، ولا أهدأ عن التّفكير إلى أن. . .

إلى أن عاد ولدي كنعان من رحلة الصّيد الذي تعلّق به من وقت قريب.

دخل ابني، وعلى وجهه مسحة رضا، وهذا معناه أنّه توفّق بصيده، ولكنّ مسحة الرّضا هذه ما لبثت أن تلاشت عندما رأى التّراب يتساقط من وجهي.

ـ: «شو باك يا بيي؟!».

ـ: «منين جبت التّلفزيون الجديد؟؟».

فتغيّر لونه، ولكنّه ابتسم، محاولاً أن يخفي هذا التغيّر، والارتباك، أمّا وجهي، فلم يتأثّر ببسمته الباردة التي سُرعان ما تبخّرت.

ـ: «منين جبت التّلفزيون؟؟».

وقبل أن يجيب دخل الحمصيّ ضيفي، وهو يقول: «يا زلمة... يا طيّب، عندك...؟»، وجمُد الكلامُ في حلقه عندما رأى ولدي «كنعان» يقف أمامي بطوله، ونحوله، ولحيته الشّقراء المحدّدة التي تشبه لحية الفنّانين.

انطفأ النّور من وجه الحمصيّ، وأمّا ولدي فقد انفجر الظّلام في وجهه، وصار وجهه قطعة من ليل فاحم صريم.

وقفنا لدقائق لم يتكلّم أحد، لم يتحرّك أحد، وأخيراً استجمعت قواي، وسألت ابني: «بتعرف هادا الزّلمة؟».

لم يجب. لم يتكلّم، بل تساقط الضّباب من ذقنه.

نظرت إلى الحمصيّ، وقلت: «هادا هو الشّبّيح؟».

لم يجب. لم يتكلّم، بل انهارت دموعه السّاخنة.

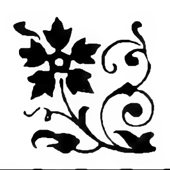
بقينا لدقائق طويلة ثقيلة واقفين كالتّماثيل. لم يتكلّم أحد. مرّ زمن طويل طويل، وأخيراً... تكلّم مسدسي برصاصة واحدة. وبعدها، توجهّت إلى الهاتف، وطلبت رقماً، وقلت: «تعو خدوا جثّة واحد شبّيح مقتول قرب بيتي، أنا عبد الهادي الشّربجي».

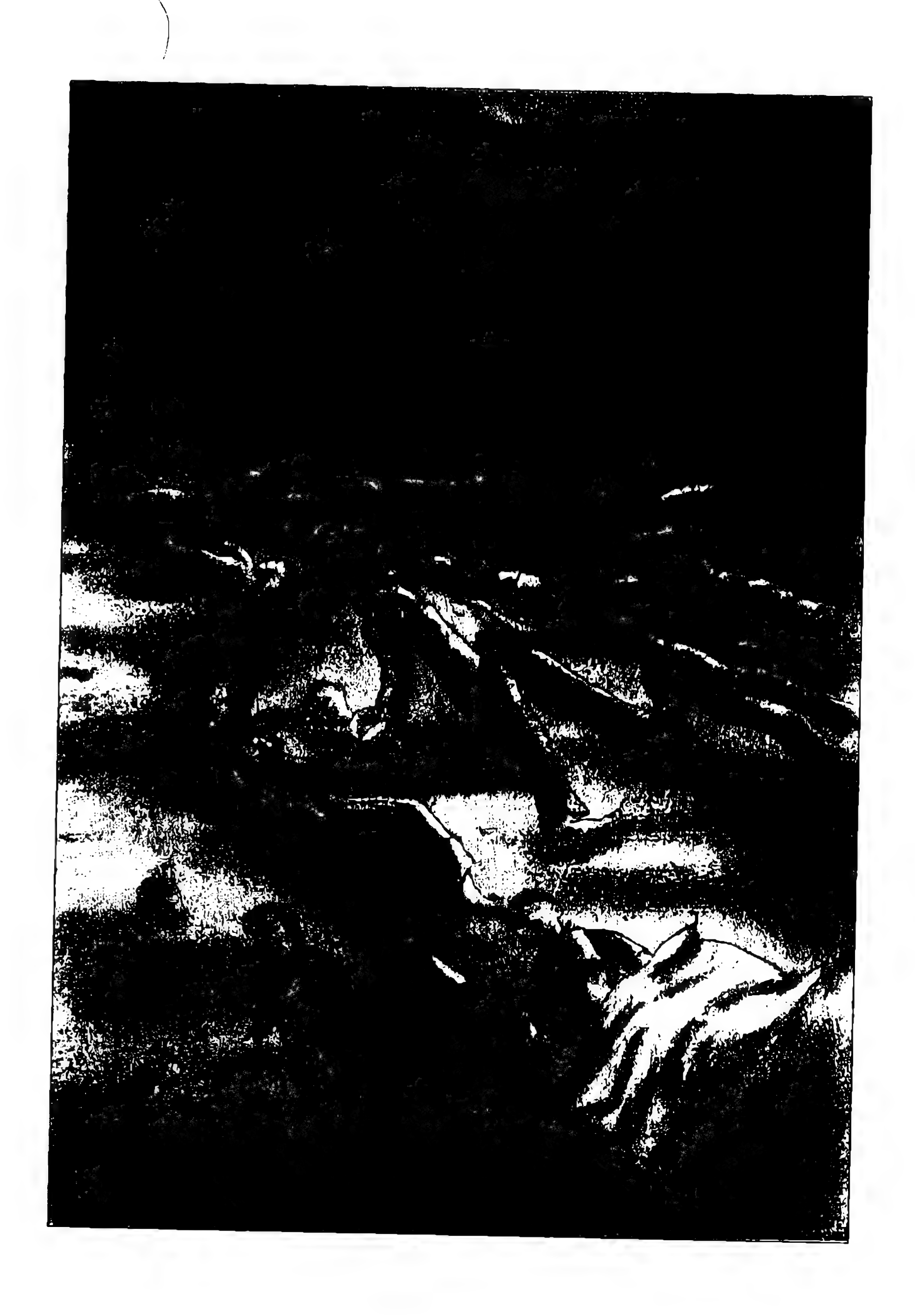
الأحد:
١٨ ـ ٨ ـ ٢٠١٣م

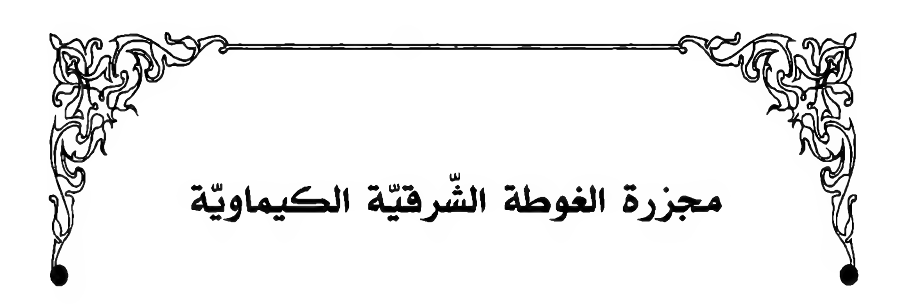




مجزرة الغوطة الشّرقيّة الكيماويّة







مجزرة الغوطة الشّرقيّة الكيماويّة

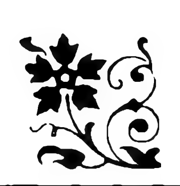
الاثنين:

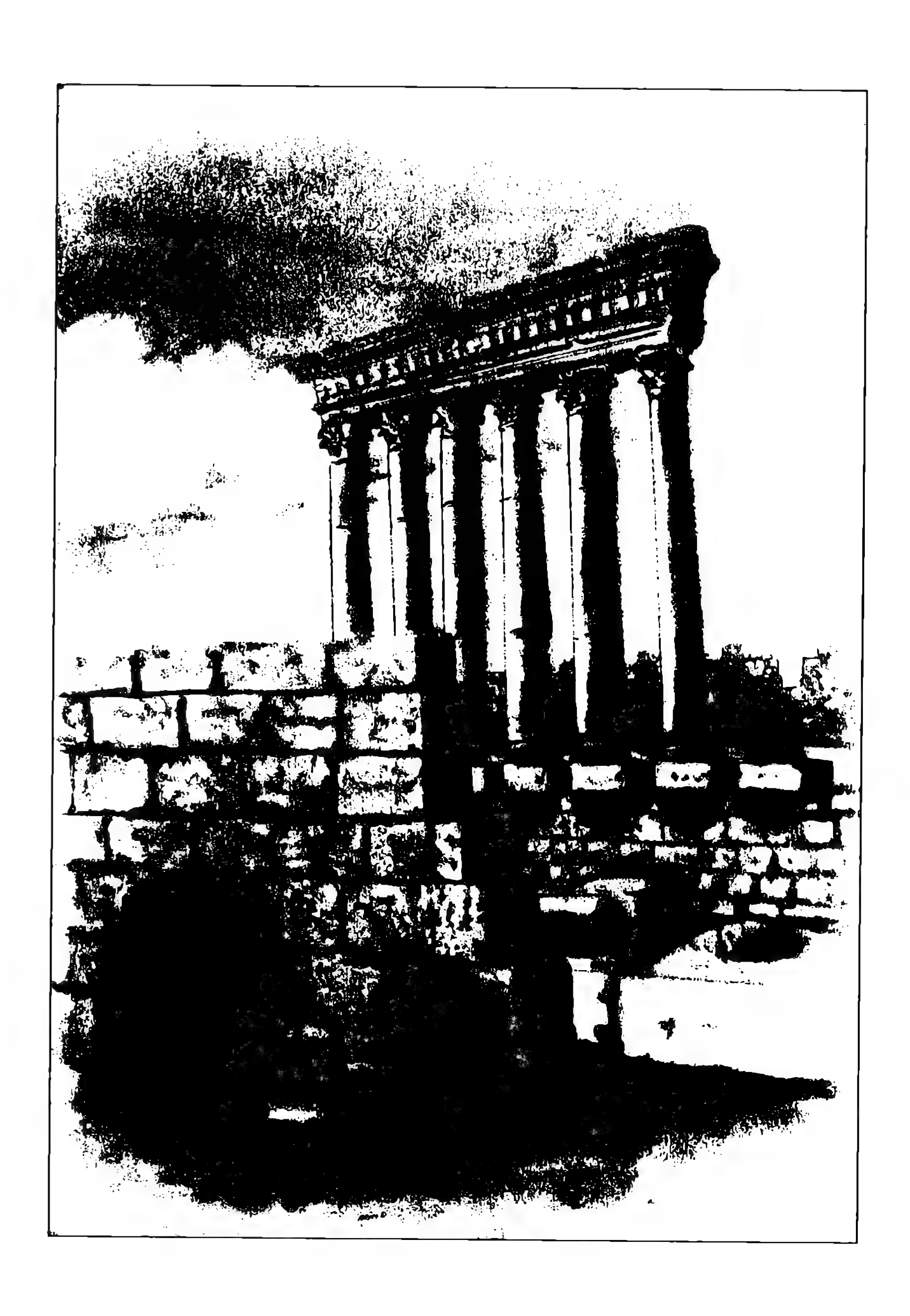
٢٦ ـ ٨ ـ ٢٠١٣م

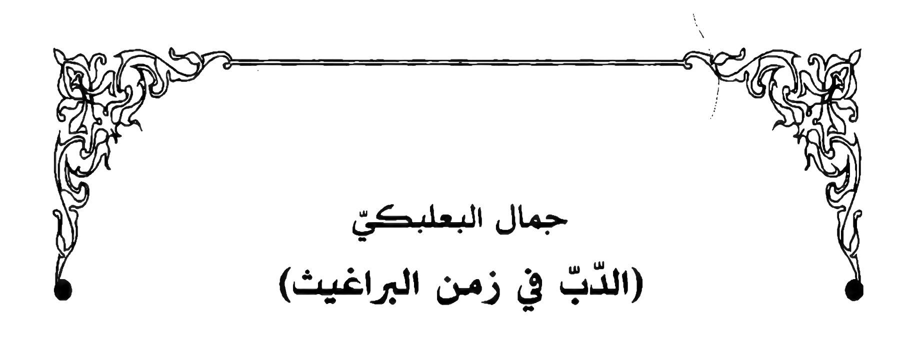


جمال البعلبكيّ

(الدّبّ في زمن البراغيث)







جمال البعلبكيّ

(الدّبّ في زمن البراغيث)

كنتُ يافعاً، وكان هناك عرس في البيت الذي يتوسّط الطّلعة في الحارة المجاورة لحارتنا. هي مرّة واحدة قضيت اللّيل كلّه في بيت العريس؛ كان الشّباب يلهون، ويتمازحون؛ كانوا يربطون أحد النّائمين بفرشته، أو يرسمون خطوطاً على وجه نائم آخر، وفي آخر اللّيل أكلنا حلوى العرس؛ السّحلب السّاخن الذي أعدّته أمّ ملحم، رحمها الله.

وفي اليوم التّالي توجّهت إلى مدرستي الرّسميّة متأخّراً بالطّبع. وصلت إلى صفّي الذي يعجّ بالتّلاميذ الذين سقط الكثير منهم من علّيّة الذّاكرة، ولم يبق إلّا المميّزون.

ومع الوقت انطلق هؤلاء المميّزون في طرقات حياتهم الخاصّة، وراح ضباب أخبارهم يتلاشى وراء شمس المجهول.

ولمّا صرت في السّابعة والثّلاثين أصيبتْ والدتي بالمرض الخبيث؛ فصرت أدور حول مصيبتي أفتّش عن فتحة إبرة أمل، وصارت كلّ وصفة من طبيب مضمار بحث لي، وأصبح كلّ اقتراح دواء ميدان سعي لي، وقيل لي عن دواء موجود في

الأردن، فحرت في أمري كيف أحصل عليه، ولم تطل حيرتي، واستطعت تأمين الدّواء.

كانت سهرة العرس في بيت «أبو صقر»، وكان العريس هو ابنه البِكر «صقر»، الأخ الأكبر لرفيقي في الصّفّ «جمال»، وهو من الرّفاق المميّزين الذين سكنوا الذّاكرة فترة أطول من غيرهم، ومع ذلك جاء الوقت الذي رحل فيه الجميع، واختفى الجميع، ورحل «جمال»، ولكنّه عاد كصباح جديد، وتطوّع بإحضار دواء والدتي من الأردنّ، وفي النّهاية أتى أمر الله، وتوفيت والدتي، ولكنّني لن أنسى معروفك أبداً يا جمال!.

هذه هي معرفتي بجمال منذ كنتُ يافعاً في بلدتي الصّغيرة الجميلة بعلبك. صاحبته في المرحلة المتوسّطة، ولكنّه اختفى بعدها، وتحوّل إلى شبح، أسمع عنه الأخبار الغريبة؛ يقال أنّه يعمل بالتّهريب، ويقال أنّه يعيش في الجرود، ويصاحب الذّئاب، ويسامر النّجوم، ويصير هو الأفقَ، فتلتقي الأرض والسّماء عند عرش صخرته.

وفي غمرة الأخبار الغريبة التي كنت أسمعها، رأيت «جمال» يمشي بعرجة شديدة. سلّمت عليه، وتحدّثنا قليلاً، ولم أسأله عن عرجته، جاءني الخبر مثل كلّ الأخبار الضّبابيّة عن جمال: «أصيب برصاصة في معركة على الحدود».

أحسست كأنّه، بسحنته القاسية، ولحيته التي بدأ الشّيب

يغزوها، وسمرته الدّاكنة، وعرجته التي أسبغت عليه مهابة محارب عائد من معركة نهاوند. أحسست كأنّه صار مسمّى حقيقيّاً، لا مجرّد لقب؛ نعم، عنيت «الدّبّ». كان «جمال «عريض العظام، ضخم الجسم، إلّا أنّ في جفنيه تكسّراً يلوّن وجهه بعذوبة غريبة رقيقة محبّبة يتذوّقها كلّ من يراه.

لا أدري إذا كان لقب «الدّبّ» هو لوالده من قبله، وقد كان «أبو صقر» طافح السّمرة، بتقاسيم وجهه الصّخريّة، أو أنّ هذا اللّقب خاصّ برفيقي الضّبابيّ، إلّا أنّ الأكيد هو أنّ رفيقي مَلَكَ اللّقب، وتحوّل على يده، وعلى سيرته إلى صفة من أحلى صفات المدح.

شتاء بعلبك شتاء قاس قارس، وطويل، ولكن فجأة هبّت نسائم الرّبيع الدّافئة على مدينتي الحبيبة. هبّت النّسائم الخضراء من تونس، ومنها إلى مصر المسروقة، ثمّ إلى ليبيا، وفي ظلّ جوّ هذه النّسائم العبقة، اجتمعنا مساءً، أنا ورفاقي الأساتذة نتسامر

ـ: «هل رأيتم هرب شين الكافرين بن عليّ؟».

ـ: «وهل علمتم أنّ مصر ستنتصر؟!؟».

ـ: «ما رأيكم، هل سيحدث شيء في سوريا؟».

تكلّمتُ واثقاً كلّ الثّقة، ووافقني أغلب الأساتذة.

قلتُ: «لا، لا يمكن أن يحدث شيء في سوريا؛ فحكم القسوة ونظام المخابرات الرّهيب لا يمكن أن يسمحا بأيّ نفَس زيادة على الأنفاس المعدودة المحدودة لكلّ شخص، وإلّا . . .».

واشتعلت الثّورة الشّاميّة، خلافاً لآرائنا الصّغيرة، وإن كنّا قد شارفنا على الأربعين. اشتعلت الثّورة، وصرخ النّاس، لأوّل مرّة تنفّس الصّوت؛ فتكسّر جليد الخوف، فردّ الرّصاص، وزأر البارود، واعتُقلت العصافير، وخُنق نسيمُ الرّبيع، وسقطت أوراق أشجار الحياة عندما عصفت الرّياح المجنونة، وخرس الكلام عن الوصف، وهُجّر النّاس، واستشرس القاتل، واستعان بالحليف، واصطفّ العدوّ مع العدوّ لقتل البريء، ولأوّل مرّة يتّحد العالم كلّه، ويجتمع على قتل الإمام الحسين من جديد.

وهاج الوحش، ولم يفكّر أحد بإيقافه، بل على العكس أُطلقت للوحش كلّ الحبال، وفتحت له كلّ الحقول، وأُبيحت له كلّ الدّماء اللّزجة الرّطبة.

هاج الوحش، فكان لا بدّ للدّبّ من أن يتحرّك، فراح يعمل وحيداً؛ يهرّب السّلاح إلى الثوّار في حمص، ويهرّب الرّصاص، والقنابل، يهرّب الخبز، والطّحين، وراح يعمل بتبادل الكرامة من بعلبك إلى سوريا، ومن سوريا إلى بعلبك.

من قال أنّ بعلبك خلت من الكرامة، والشهامة؟ وإن كانت بعلبك ـ كما يقول البعضُ ـ محتَلّةً.

اشترى جمال السّلاح من ماله الخاصّ، وقام بإيصاله إلى الثّوار، حتّى لقد هرّب السّلاح بسيارة تابعة للعدوّ نفسه!!. غريب أمرك يا جمال!.

هرّب الأسلحة، وهرب من بيته، وصار مطارداً أكثر ممّا كان، وتحوّل إلى دبّ برّيّ تلفظه المدنيّة المتوحّشة، وتحتضنه البراري الأليفة الرّؤوم. وصار النّاس في بعلبك يتداولون أخبار «الدّبّ»، وأصبح النّاس في حمص يحكون أنباء «الدّبّ»، ويتحوّل «الدّبّ» إلى أيقونة يرسمها الأطفال الحمصيّون على جدار بقي نصفه واقفاً بعد القصف، ويكتب الأولاد: «الدّبّ يتحدّى الأسد».

ولكنّ «جمال» بقي وحيداً مع الثّوّار، ووقفت ضدّه الدّول الحليفة، والدّول العدوّة على السّواء، لم يعد هناك فريقان في العالم، بل فريق واحد: الولايات المتّحدة، وحليفتها روسيا، فريق واحد ضدّ جمال. تعاون الجميع، وسقطت القُصير، وحوصرت حمص، ودمرت أحياء، وأُبيدت قرى، وكانت مجازر، وذبُح أطفال، وقُصفت الورود، واقتعلت غصون، وقتلت حكايات النّاس، وأعدمت مسامراتهم، وصباحات قهوتهم، ومزّقت كتب مدارسهم. سقطت القُصير، ولم يسقط جمال.

ولم يسقط عندما هدأت الزّبداني بالمعاهدة، وبقي يستقبل الهاربين، ويؤويهم، ويخدمهم، ويرعاهم، ويتابعهم حتّى في هروبه من شرود إلى جرود، إلى البراري، وقمم الجبال الثّلجيّة.

ومضى آب الحارّ جدّاً من صيف ٢٠١٣م، وجاء أيلول. وأيلول شهرٌ غريبٌ ليس له انتماء؛ لا يعرف هذا الشّهر نفسه هل هو من الصّيف، أو من الخريف. لا يعرف هذا الشّهر هل يتّسم بنزق الثّوّار، أو يتخلّق بحكمة الشّيوخ، وهكذا كان جمال، كان جسمه نفحة من صيف بعلبك الشّديد سلاطة الشّمس، وأمّا روحه فهي خلاصة حكمة الفصول، حتّى القلبُ، قلبُ جمال كان في حيرة من أمره؛ أين هو؟ ومع من؛ مع أي فريق؟ مع أيّة مجموعة؟ احتار القلب، وفكّر، وتعب، كان القلب يهدس: العالم كلّه وقف في صفّ القاتل، وبقيتُ وحدي مع الجبال؛ جسمي يأبى القعود، وروحي شيّبت لحيتي، وقلبي يؤلمني.

التقيت بولده محمود بعد شهر تقريباً، قال لي: «كان من فترة يشعر بالوجع في يده، وخصره؛ سألته، فأجابَ: هو البردُ؛ ربّما بسبب الصّخرة التي أنام عليها.

ولكنّني كنت أعلم جيّداً أنّه بالفترة الأخيرة كان نومه نذراً يسيراً، وينام نومة الثّعالب بعين مغمضة، وعين مفتوحة.

قلتُ: يا أبي: نذهب إلى المستشفى؟ قال: لا، إذا ذهبتُ فكأنّني ذاهبٌ إلى مشنقتي؛ لا أستطيع؛ أنا مطاردٌ، ورأسي مطلوب، والعيون مفتوحة، وأنا صرت «منيح».

وعند تناول طعام العشاء، وضع والدي أوّل لقمة، والثّانية، وصرخ؛ فأسرعنا به إلى المستشفى، وقمنا بكلّ التّدبيرات ليكون الأمر سرّيّاً، ولكن... لم يطل الأمر، فقد كان القلب قد بلغ به التّعب إلى أبعد الشّواطئ؛ فكان لا بدّ من إلقاء المرساة، ومات والدي.

«مات جمال الدّبّ... والحمد لله على كلّ حال، الحمد لله».

سكتَ محمود قليلاً، ووجمتُ أنا، لقد كنتُ في حضرة الموت المَهيب، ثمّ عاد للقول: «عندما مات أبي فهمت مقالته التي كرّرها في أيّامه الأخيرة؛ كان يقول لي: يجب أن تكون رجلاً، والرّجال تُعرف عند المصائب، أنت ابني، ولدي البكر، أريدك رجلاً، أريدك على قدر المسؤوليّة... أريد أن أكون فخوراً بك...

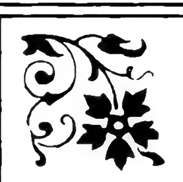
وأردف ولده: نعم، يا أبي، فهمتُ، وسأكونُ يا أبي... سأكون... رحمك الله، وتقبّل عملك».

ـ: «والآن... ها قد حكيت لكم قصّتي مع جمال، وعرفتم الآن لماذا كوّنّا هذه المجموعة، وعرفتم لماذا سمّيناها باسم البطل: جمال الدّبّ، والآن سنتابع العمل».

الأربعاء:

٩ ـ ١٠ ـ ٢٠١٣م

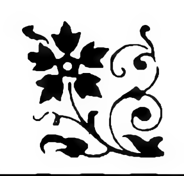


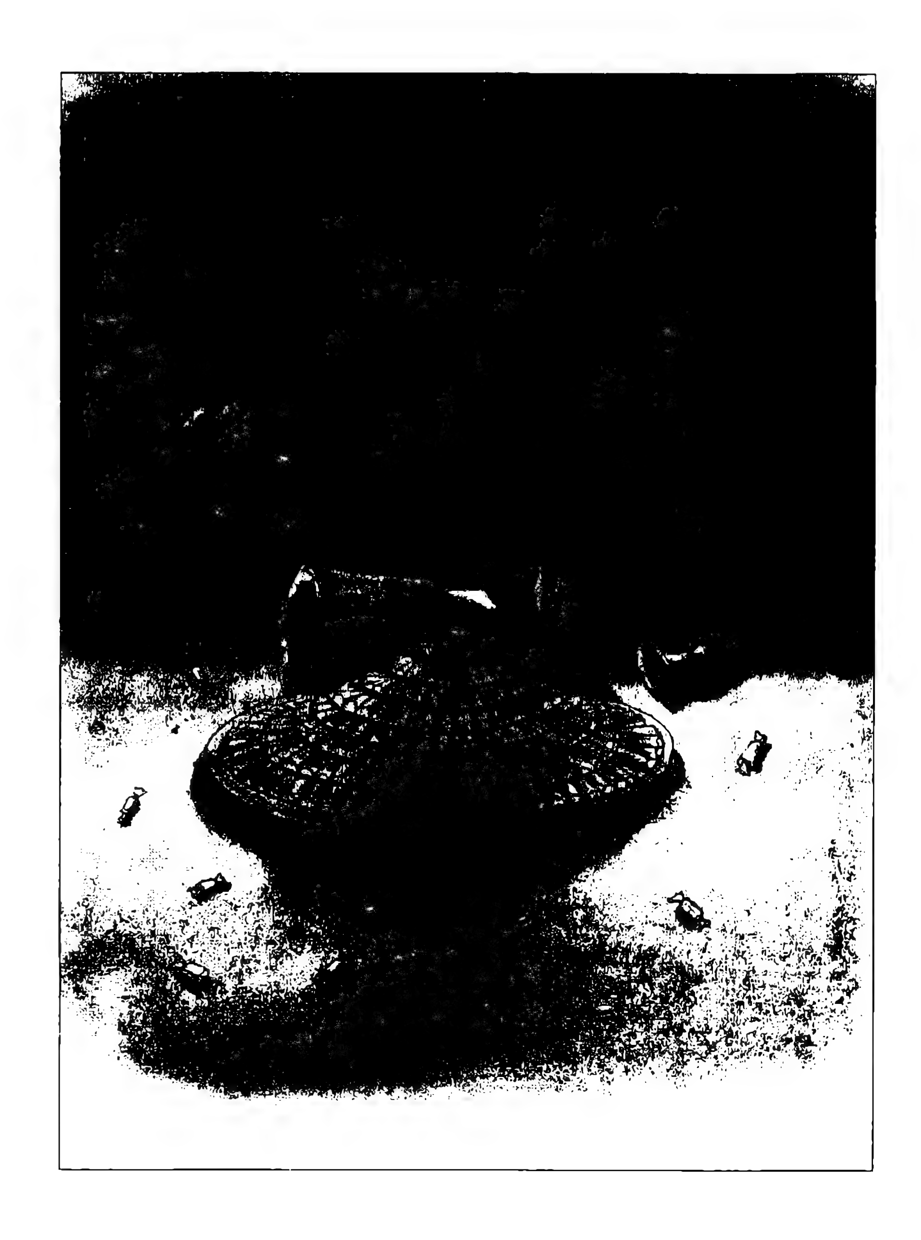


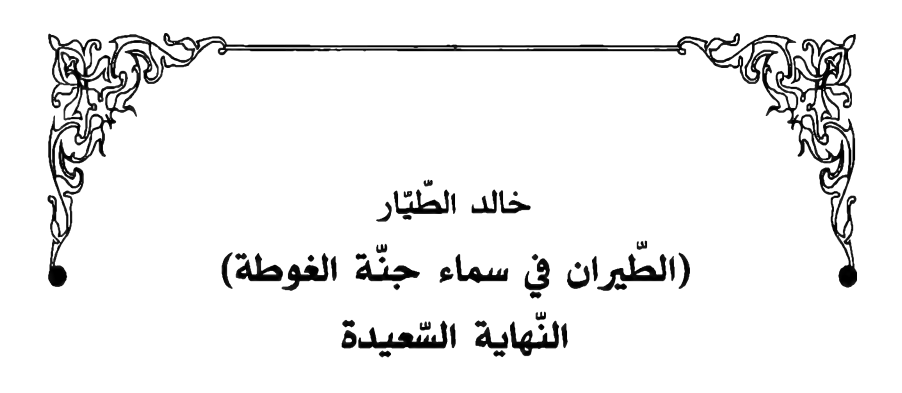
خالد الطّيّار

(الطّيران في سماء جنّة الغوطة)

النّهاية السّعيدة







خالد الطّيّار

(الطّيران في سماء جنّة الغوطة)

النّهاية السّعيدة

أحسست بالخدر اللّذيذ، وكأنّني أستيقظ بعد نوم طويل مريح. كانت اللّيلة الماضية في كلّ أنحاء الغوطة الشّرقيّة ليلة مميّزة جدّاً. كان الغيم يمشي بيننا على مستوى قامات النّاس، ليس من باب المجاز، بل هذه هي عين الحقيقة الصّافية النّقيّة.

أحياناً تشعر بأنّ المطر الذي ينزل من السّماء ينهمل خصّيصاً لك. صباحٌ عجيبٌ غريبٌ من صباحات الغوطة؛ هدوءٌ عميقٌ، ولكنّه ليس مريباً.

من كان يصدّق أنّ الأمر سينتهي؟!.

صلّيتُ الفجر، ثمّ عدتُ إلى النّوم. النّوم في الغوطة له خصوصيّته؛ فهو كالنّوم في عمق البحر، حيث لا صوت، ولا ضوء. نمتُ كما لم أنمْ يوماً، واستيقظت كما لم أستيقظ من قبل.

قمتُ من الفراش، وأنا أشمُّ عطر ياسمين الشّام مضمّخاً ببقايا رائحة البارود. قمتُ كما أقومُ صبيحة العيد، طبعاً عندما

كنتُ شابّاً يافعاً، عندما كنت أزورُ المسجد الأمويّ، وأشتري السّكاكر من آخر «البزوريّة» حيث يقف بائع الحلوى بعربته الحمراء المميّزة، ومن خلفه شارع واسع تُغلق محلّاته، لتفسح المجال للأراجيح، ولألعاب الأولاد المختلفة الملوّنة، ولكن للعيد في الغوطة طعم آخر.

قمتُ من فراشي الدّافئ النّاعم، لأشعل النّار تحت ركوة القهوة، وأغسل وجهي.

أستغرب هذا الهدوء. كانت ليلة البارحة ليلة صاخبة جدّاً، ضاجّةً جدّاً، والكلُّ يصدر ضجيجه، وصراخه على طريقته في كلّ المدن الشّاميّة؛ إمام المسجد الأمويّ بالصّلاة والدّعاء، والمصلّون بالبكاء والسّجود، ومحلّات الحميديّة بالفيض على المشترين، وكأنّهم ضيوف البيت الأعزّاء، والأولاد بالرّقص على الطّرقات، والتمرّغ بالتّراب، والمجاهدون بتقبيل الأرض، والهاربون بالعودة قوافل قوافل، والنّازحون بدموع العناق، وشهيق العودة، وزفير الشّوق، ونشيج الصّدر، والمقاتلون بمعانقة السّلاح، والنّساء بالزّغردة، والمآذن بالتّكبير، وبعض النّاس ضجّ صمته، وبعضُهم ضجّ صدره، بعضُهم ضجّت عيناه، وأشجارُ الغوطة ضجّت بعطرها، وياسمين الشّام ضجّ بشذاه، كما لم يفعل من زمن بعيد، وضجّ الشّيوخ بالحمد، والعجائز بالثّناء، والشّباب والصّبايا والفتيان

والفتيات بالنّظر إلى جدران بيوت الشّام العتيقة. ما أجملها! ما أروعها! ما أحلاها!.

بعضُهم رمى بنفسه في مياه بركة السّبع بحرات، بعضهم قبّل عمود المرجة، بعضُهم اشترى كتاباً من «الحلبوني»، وكتبَ عليه تاريخ الشّراء بقلم ذهبيّ اللّون، بعضُهم رسم على الجدران سنبلة قمح صفراء، بعضُهم صنع عقداً في وسطه رصاصة لم تطلق.

خرج النّاس، كلّ النّاس من البيوت، ملأوا الطّرقات، واكتظّت السّاحات، دخل النّاس المتاحف، فرأوا فيها ما لم يروه سابقاً، وإن كانوا قد زاروا المتاحف نفسها مرّات ومرّات.

وجه الشّام ليس كوجهها في يوم من الأيّام، والغوطة عروس الشّام لم تكن أجمل في دهرها جمالَها اليوم، وإن كان الدّمار فيها يصرخ بوحشيّة بربريّة، ومع ذلك كانت الأجمل، وإن كانت أضرحة الموت تحاول أن تزاحم شواهد الحياة، ولكنّ الغوطة كانت الأبهى رغم كلّ شواهد الحياة، والموت.

للأشجار في الغوطة حكاياتٌ عتيقةٌ عن أبطالٍ، ورجالٍ، ظنّ الكثير من النّاس أنّها حكايات ليالٍ شتويّة، أو أنّها أساطيرُ عجائز، لكنّ الغوطة البارحة كانت أحلى قصّة من قَصص ألف ليلة وليلة. زار السّوريّون كلّهم، البارحة، غوطة دمشق

الشّرقيّة؛ جاؤوا ليروا رجالها، وهم يلبَسون الكوفيّات، والعُقُل العربيّة، بشواربهم المعقوفة الكثّة، وشراويلهم السّوداء، ولكنّهم شاهدوا شباباً بعمر الورود، بوجوه شائبة اللّحى، وبعيون تجاعيدها السّوداء تتكلّم بصمت، وبثياب مرقّطة ممزّقة، ومع ذلك كانوا سعداء سعداء.

كان النّاس يحجّون إلى الغوطة، يجلسون تحت أشجارها، يحادثون شبابها، يكتبون أسماءهم على أشجارها، يلثمون ترابها، ولم يأبهوا لبقايا الكيماوي في أرضها. سار النّاس في الطّرقات، وهم يهتفون، ويغنّون: «قائدنا للأبد. . . . سيّدنا محمّد»، كانت كلمة «محمّد» تخرج من أفواههم معطّرة بمسك الغوطة، وعنبر الغوطة، وعسل الغوطة، ودموع ينابيع الغوطة، وحشرجة أنفاس أمّهات الغوطة، وهنّ يقرأن الفاتحة على ساكني مقابر الغوطة من الأطفال النّائمين تحت أطباق الثّرى، وكانت امرأة يزغرد بكاؤها عند ضريح ولدها، وامرأة ثكلى بضحكتها عند لحد زوجها، ورجل يبتسم بحرقة أمام شاهد أمّه؛ بكاءٌ بفرح، وضحكٌ بدموع، وعويلٌ بأمل، ورجلٌ أصابته هستيريا، فبقي طوال اللّيل ينادي: «حرّيّة. . . حرّيّة. . . حريّة. . . . حرّيّة».

أنا خالد الدّمشقي، وأنا من الغوطة؛ جنّة الدّنيا. عندما بدأت ثورة الياسمين كنت واحداً من الذين خرجوا من شرنقة

الظّلّ إلى نور الحرّيّة، ولكنّ الظّلام نكّل بالنّاس. ظننتُ يومها أنّنا سنقول للحاكم: «لا نريدك»؛ فيرحل بصمت.

خرجت المظاهرات؛ فبدأ الرّصاص يحصد الأرواح. أصرّينا على استقبال حرارة الشّمس؛ فانهالت علينا القذائف. شعرنا بأنّ العالم لن يسكت على قتلنا؛ فحلّقت الطّائرات، وقَصفت أجسادَنا، وسكت العالم، بل وتآمر، وتواطأ، واشتدت الوطأة؛ فهربتُ مع عائلتي إلى لبنان، هربنا إلى صيدا، وهناك صرتُ أتردّد إلى جمعيّة خيريّة تساعد السّوريّين. بدأت زياراتنا الأولى لطلب المساعدة، ثمّ تغيّر الأمر؛ فصرنا نشارك بتقديم المساعدة والعون لعائلات السّوريّين النّازحين عبر الجمعيّة؛ صرنا نملأ استمارات، ونسجّل أسماء، ونوصّل مساعدات، بل وصرتُ أنا، بخبرتي في الرّسم، أساعدُ الجمعيّة بأعمالها المتعلّقة بالتّصميم، والرّسومات الفنّيّة، ولكنّني كنت أحسّ بخللٍ ما؛ ماذا أفعل هنا، والشّباب في الغوطة يحاربون التّنّين؟ يُطلب إليّ أن أرسم شجرة؛ فأرسم بندقيّة. يطلب إليّ أن أشتري حصصاً غذائيّة، فأرفض؛ لأنّني أريد شراء سلاح. يطلب إليّ أن أرسم لوحة شكر لدولة خليجيّة، فأرفض لأنّها لم تقدّم للسّوريّين إلّا الدّعم القولي الذي لا هدف له إلّا إطالة أمد الأزمة، واستمرار القاتل بقتله.

ـ: «ارسمْ وردة»؛ فأرسم رصاصة.

ورحت أعمل، وأجمع مالاً، ولا أصرف منه شيئاً، وفي يومٍ صيفيّ حارّ كان قد نضج قراري؛ فتركت كلَّ شيء، وانطلقت متخفّياً عن العيون، تركت الكلام خلفي ينبت مثل الحشائش الفوضويّة، أو كطحالب البحر المتمرّدة، وتسلّقت غمامة، فطارت بي إلى غوطة دمشق، وألقتني قطرة ماء على ورقة شجرة تفّاح، فسقيتُها، ثمّ قفزتُ إلى التّراب العطش، وسقيته بجسمي، زارعاً قلبي في أعمق جذورها، وهناك نبتُّ من جديد، حاملاً سلاحي، ورصاصات اشتريتها، ورحت أدافع عن غوطتي، وصرت جنديّاً في كتيبة «جعفر الطّيّار»، وأطلقت النّار على التّنّين، وأصبته في نابه عدّة مرّات، ولكنّه عضّني أيضاً عدّة مرّات؛ واحدة منها كادت تقطع رجلي، ومرّة أكلتْ رصاصةٌ قضمة من خصري.

عشتُ الغوطة بأيّامها المغبرّة، ولياليها المضاءة بالأضواء المرعبة، وعشت يومها الكيماويّ؛ عشت صبيحة الأولاد الذين ترتعش أجسادهم، وتنتفض كأسماك أخرجت من الماء، فراحت تتمزّق أرواحها بسبب الهواء الملوّث بكلّ الحقد الأمريكيّ الرّوسيّ.

يوم الكيماويّ يوم لن ينساه البشر، وإن كانت الحيوانات قد نسيته بالفعل.

ولكن لماذا أذكر ذلك؟؟ فقد انتهى كلّ شيء، ومضى كلّ

شيء إلى الماضي، والبارحة كانت ليلةَ العمر؛ ليلةَ الفرح، والحبور، والسّرور، والسّعادة، والألق؛ ليلةَ التّجلّي.

عند الغروب، استيقظتْ قبابُ المساجد، ودقّتْ أجراسُ الكنائس، وقامت من كبوتها المآذنُ، ونفضتْ غبارها القلاعُ، وانتفضتُ ميسلون، وأفاقَ قاسيون، واشرأبّتْ حاراتُ دمشق، وصرخت حمص: «الله أكبر»؛ فاهتزّت أرجاء الغوطة.

الله أكبر، حيّ على الصّلاة، وماجت درعا، وصاحت المعرّة، وانبعثت القُصير من تحت الرّماد، وقامت «السّفيرة»، ورقصت حلب، تنفسّت الصّعداء القلمون، وتحرّكتْ نواعير حماه بأغنيتها الأسطوريّة تحت وقع ألحان نهر العاصي، وأمطرت سماء الشّام عطوراً من «بدر»، وهبّت رياح «الخندق»، وجلس «عليّ» يتنهّد، وتدمع عيناه، ويشرب كوب شاي، وينظر إلى تلال الزّبدانيّ، وطافت روح «حسين» ترفرف فراشة فوق أزهار القلمون، وعاد الأولاد الهاربون من «الزّهوري» الفنّان، وصدح الأذان في مسجده، وجاء المصلّون، جاء المجاهدون، أنا أعرفهم جميعاً، وقد مضوا شهداء سعداء، وأنا أشاركهم نصرهم!.

تأخّرتْ على القهوة، فبردتْ، رحتُ أرتشفها باردة، لم تكن أطيب من ذي قبل. جلست أنتظر أهلي العائدين من لبنان. نظرت إلى بساتين الغوطة المنهكة، وكانت تستردّ

أنفاسها، فرأيت «حمزة الخطيب» يلعب الغميضة مع «فاطمة مغلاج»، وكان «لحمزة بكّور» وجه جديد يراقب به الأطفال الذين يلعبون، وينظر إلى «طلّ الملوحي» تحكي مع «هادي العبد لله» ماذا حدث معها ممّا لا يصدقه عقل. شاهدتُ «بشير البايازيد»، وقد صار عمره ثمانية عشر عاماً، بوجه رجلٍ في الأربعين.

ـ: «أمّ خالد، وين صرتو؟».

نظرتُ إلى قرى الغوطة، فرأيت الشّباب على الطّرقات، بثيابهم القشيبة المعطّرة يغنّون: «كلو كرمالك يا شام، شعبك واحد يا سوري...... عربي وكردي وآشوري.... وأنا جنسيتي حمّوري... وكلو كرمالك يا شام».

وتعجّبتُ كيف أرى غناءً بدموع، وفرحةً بغصّة، وانتصاراً بوجع، وشفاءً بخدر، وتعجّبت، ولكن: «ما رأيك يا جميلة؟».

جميلة هو اسم بندقيتي؛ لأنّها جميلة، ولأنّ اسمها على اسم «جميلة بوحيرد». لم تجب جميلة؛ فصوتها مبحوح بسبب الشّتاء القاحل الذي مرّ عليها، ثمّ رحل.

: «اشتقت لك يا بو خالد». لا أحد يشعر بقهر الرّجال إلّا رجل أخرج من بيته، يتألّم، ويتوجّع، ولا يستطيع حتّى أن يصرخ، وربّما يتصرّف، ويستغرب تصرّفاته، ولا يعرف لماذا فعل ما فعل: «وين صرتو يا بو خالد؟».

صحيح، بقيتْ بعض الحواجز لئلّا يتسلّل ما يحرج الفرحة. لن يتأخّروا، سأقوم، وأسخّن القهوة. أنا الآن في البيت، أو في نصف البيت، ومع ذلك لا أفكّر بوجع البيت المدمّر نصفه؛ لأنّني سأعيد بناءه على تصميم جديد: تصميم أساسه الحرّيّة، سيكون كلّه من زجاج ملوّن، لكيلا يحول دون دخول شعاع الشّمس.

ماذا سنأكل عندما يصلون، بقي لديّ «مرطبان» زيتون دمشقيّ، ونصف كيلو كباب حلبيّ، وبقايا صحن حلاوة الجبن من حمص، وربطة خبز من طحين الشّام المبارك، وليمونتان من السّاحل، وأحضر لي البارحة صاحبي الحمويّ صحن «باطرش»، لم أذقه بانتظار عودة العائلة.

وعلى سيرة الطّعام، أتذكّر أنّني عشتُ حصار الغوطة في شِعْب أبي طالب، حيث حوصرنا، نحن المجاهدين، مع صحابة النّبيّ، عليه الصّلاة والسّلام، وهناك اشتدّ علينا الجوع، حتّى أكلنا الحشائش، وأفتينا بأكل الميتة، حتّى القطط، وأكلنا ورق الشّجر. سامحينا يا أشجار الغوطة، وتشقّقت أمعاء بني هاشم، ولكنْ في الغوطة لم يتحرّك «زُهير»، ولا «جُبير»، ولا «المُطعِم»، ولا أحد؛ لا من شرفاء المشركين، ولا من متخاذلي المسلمين، ومات أطفال، ونشفت أعضاء العجائز، وجفّت الأثداء، ونفقت الحيوانات،

وبقيت صحيفة العار والحصار معلّقة حتّى أكلتها أرَضَة الخبر السّعيد.

ـ: «ألو خالد»، تكلّم أخي أحمد.

ـ: «نعم، إنتو وين؟».

ـ: «نحنا بالشّام».

ـ: «الحمد لله ع السّلامة».

ـ: «تعال شوف العيد، والفرح، والسّعادة، والرّقص، والحميديّة، والأمويّ، والأعراس، والأفراح، والقلعة، والدّبكة؛ لا تماثيل، ولا لوحات، ولا صور، والنّاس بيبوّسوا بعضن، بيعرفوا بعضن، أو ما بيعرفوا بعض؛ الكلّ بيبوّس الكلّ. تعا شوف صلاح الدّين يتراقص حصانه على باب القلعة، تعا شوف صواني الحلو، والبقلاوة تعا شوف العبّاسيّين بالعبّاسيّين، والأمويّين بالمسجد الأمويّ، تعا شوف علماء الشّام والمنشدين بيغنّوا ع الطّرقات كأنّا بالأندلس، والمحلّات بتشيل صور، وبتحط آيات قرآنيّة والنّاس بتعطي الفقرا، والفقرا بيدعوا للشّام وأهل الشّام... إنت كيفك؟».

ـ: «الحمد لله». كان أحمد يتكلّم بحماسة عظيمة، لم أستطع إيقافه، وما كنت أريد. كنت أستمع إليه، وكأنّه يغنّي آلاء النّعمة الرّبانيّة. كان صوته يفيض بشغف الرّاحة بعد النّصَب، وفي صوته لون الشّفاء بعد طول المرض.

ـ: «يا الله، ناطركم».

ـ: «لا تاكل. . . معنا صفيحة بعلبكيّة».

ـ: «أكيد لاء، ناطركم».

صار أهلي هنا، في سوريا. سوريا جميلة. عاد أهلي صارت أجمل. دمعت عيناي. أنت دائما أجمل يا سوريا. «حرام هاللي صار فيك يا سوريا». عاد أهلي. قلبي سَعِيد، أنا فرحان. انقشع الضّباب. ارتاح السّلاح. رحل الخريف. عادتْ أسراب الطّيور. زال السّراب. هدأت النّفوس. لم أر أهلي منذ سنتين.

وصل أهلي. عانقتهم جميعاً، عانقت أبي، قبّلت يده، لثمتها، بكى على كتفي. قبّلت يدي أمّي. قبّلت قدمي أمّي، فوقعتْ إلى الأرض ترفعني، وتقول: «إنت ما بتنزل؛ إنت مجاهد؛ إنت بترفع راسك. سوريا بترفع راسها فيك يا خالد، يا إبني، يا جعفر الطّيّار». عانقتُ أخي أحمد، ورقصنا، ورقصنا، حتّى تعبنا، ووقعنا إلى الأرض، ونحن نصرخ، ونضحك.

سألني أحمد: «شو حيصير هلّق؟».

قلت: «قدّامنا مرحلة طويلة نرتّب الفوضى، نعمّر البلد على أساس جديد، الحمد لله، وقعتْ أسنان التّنّين كلّها، وبقي شويّة صغيرة، مرحلة صغيرة، فترة بسيطة، وبتنتهي بإذن ألله».

ـ: «لكنّهم عم بيقولوا فلان يمكن يصير الرّئيس. . .».

ـ: «مش مهم مين. . . المهم إنّو سوري، وبيحبّ سوريا».

قال أحمد: «معك حقّ».

قلتُ: «نعم، المهمّ، المهمّ قُتل التّنّين، وعادت أليسار، وقام الفينيق، وأمامنا طريق طويل، لنزرع كلّ الورود، ولنصلّي في محراب الياسمين، ولنرفع العلم الأخضر. . . علم سوريا الحرّة. . . سوريا الحرّة».

الخميس:
١٤ ـ ١١ ـ ٢٠١٣م

تمّ بعون الله، والحمد لله ربّ العالمين

الفهرس

الموضوع	الصفحة

ثورة الياسمين

شخصيات من الثورة الشاميّة

حسن محمود الشلّ

- مواليد بعلبك - لبنان: 1967م.
- ماستر في اللّغة العربيّة وآدابها - الجامعة اللّبنانيّة: 2014م.
- إجازة في العلوم الشّرعيّة من كليّة الشّريعة، بيروت: 1994م.
- إجازة في حفظ القرآن الكريم: 2004م.
- شهادة الكفاءة في التّربية والتعليم من كليّة التّربية، الجامعة اللّبنانيّة، الدّكوانة: 2009م.
- شارك في عدّة ندوات شعريّة في بعلبك...
- صدر له كتاب: إشراقات؛ مقالات في كلمات عام: 2013م.
- له مجموعة مقالات وقصص نشرت في جريدة اللّواء اللّبنانيّة: 2006-2007م.
- تحت الطّبع ديوان شعر: أمّتي، وقلبي، وأوراقي القديمة.
- العنوان على شبكة الإنترنت:

www.Hassanalshall.blogspot.com

لربمـا تأخرت بالكتابة، ولذلك أسـباب، ونواه، ولعلّ من أعظم هذه الأسبــاب أنني أشعر - حقيقة - بقصور لغتي عمّا تنزع إليه نفسي في تصويره. أو ربَما على العكس من ذلـك، أخشى أن تثور اللـغة، فتخرج عن حدود المعقول إلى اللّامحـدود في المسافة الفاصلـة بين اللـّغة، وبين ما في النفس من صرخات مجروحة بالإجرام القرمزيّ.

ولأجل ما أسفلت، ها أنا أعيد الصّياغة:

اشتعلـت الثَورة الشَامية، ثـورة الياسمين، فصرخ جنين الحرية من أعماق مشيمة الظلم. أيقظته أنوار الفجر الأولى، فخـرج ماردا جبّارا، ومزّق بيديه غشاوة، كانت تبدو كسدَ صخريَ عظيم بسبب كثافة الظّلام.

وانهار جبـل جليد الوهم تحت وطـأة شعاع شمس طال برود ليلها. شمس تململت، وكسرت قشرتها، واشرأبَت إلى أبراج سديم الحرَيَة الأخضر.

وانتفض المقاتلـون العائدون مـن «القادسيّة»، وانضمّ إليهـم أبطال «نهاونـد»، فأضرمت نـيران «كالديران»، وتجمّعوا هناك في أرض الشّام.

وهناك على التلّة المشرفة وقف معاوية على رأس الجيش. هـذه المرة كان علي معه في قيادة واحدة، وكان خالد هو القائد الميداني، وكان كسرى يسلم سراقة بن مالك سواريه الذهبيين الأسطوريين. وهناك كان يستلم الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر ابنتـي كسرى غنيمة حرب من الفاروق عمر بن الخطاب.

ISBN: 978-614-02-1164-3
9 786140 211643

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com